الفصل الثالث

# معركة الأفكار والمناهج

## (١)
## التجديد الحضارى بين التقليدية والتوفيقية

قامت الحركة الإسلامية لاستعادة المرجعية الإسلامية الشاملة، وهى بهذا حركة تغيير حضارى شامل، تهدف إلى استعادة مرجعية الحضارة الإسلامية فى جميع جوانب الحياة، بوصفها النظام العام للأمة الإسلامية. ومن أجل بناء المرجعية الإسلامية الشاملة، وتحقيق وحدة الأمة الإسلامية ونهضتها، تخوض الحركة الإسلامية عملية مستمرة لتشكيل رؤيتها وبناء منهجها الحركى وسط عوامل تجذبها وتشدها، أو تدفعها وتحاصرها، فتنتج الرؤى والمناهج من حالة التفاعل بين الحركة الإسلامية ومحيطها، والتحديات التى تواجهها.

تلك الحالة لها ملامحها وعناصرها الأساسية، التى تمثل الأبعاد الفاعلة فى الواقع، والبدائل المتاحة، والعوامل الخارجية الضاغطة. ومنها تتشكل مسارات الفكرة والمنهج، وتتشكل مراحل التطور والتغير. فتصبح خريطة الأفكار جزءًا من خريطة الحالة الإسلامية، فهى التى توضح موضع الحركة الإسلامية، وتياراتها الداخلية. كما توضح خريطة الأفكار موضع المجتمعات العربية والإسلامية وموضع الحركة الإسلامية فيها. وتوضح أيضًا موضع القوى المحلية خارج التيار الإسلامى، والقوى الخارجية أيضًا.

والحركة الإسلامية تمر عبر تاريخها بمراحل مهمة وأخرى فاصلة، وهى تلك المراحل التى تؤسس لما بعدها، وتحدد مسار المستقبل. وتلك اللحظات المهمة ليست بعيدة عن خريطة الأفكار، بل تقع بداخلها. ففى اللحظة المهمة تنتصر فكرة على أخرى، وتتبلور ملامح المنهج والتوجه، وتتحدد الثوابت وتتضح المتغيرات. فاللحظات الحاسمة، هى

لحظات الفرز والمراجعة، وهى لحظات تبلور الأفكار والرؤى والمناهج، وهى اللحظات التى تتميز فيها التيارات والحركات.

ولا يمكن النظر للحركة الإسلامية إلا من داخل فكرتها، وداخل محيطها، وداخل عصرها حتى يظهر موضعها. فكل فكرة تعرف بما يميزها، ولكنها تعرف أيضًا من خلال موضعها من الأفكار الأخرى؛ لذا غلب على الرؤية العلمية استخدام التصنيف كوسيلة تساعد على تفسير الظواهر، وتبين الفروق بين مكونات الظاهرة. ومن خلال تحديد الأفكار والمعايير الأساسية يمكن النظر إلى مسار التحولات، ومعرفة مجرى التغيرات.

لذا يكتسب تيار الصحوة الإسلامية الكثير من دلالاته من خلال موضعه وموقعه على خريطة الحالة الحضارية والفكرية التى تمر بها الأمة، بما يميز تيارات الصحوة عن بعضها ويميزها عن غيرها. فيصبح تحديد معايير التصنيف وسيلة لفهم مكونات تيار الصحوة الإسلامية، ومعرفة مراحله وتحولاته وتفاعلاته الداخلية.

**مسارات الإصلاح**

تشكلت أفكار الحركة الإسلامية حول طرق بناء المرجعية الإسلامية، وكيفية تحقيق النهضة. فتجلت الفكرة الحضارية فى اتجاهات متنوعة، حسب منهج التفكير والحركة.

فقد ظهر اتجاه يرى أهمية إعادة بناء الرؤية الإسلامية من خلال استعادة الماضى، وذلك بالبحث عن أفضل تجارب السلف، ومحاولة استعادة بنائها مرة أخرى. ويتبلور التيار التقليدى الذى يرى أهمية التمسك بالملامح التقليدية التى تحققت فى الماضى، على أساس أنها أفضل وسيلة لتحقيق النموذج الإسلامى. والتيار التقليدى يمثل تيارًا من تيارات الصحوة الإسلامية، الذى يتمسك بأهمية الأخذ عن النموذج التاريخى ليس فقط ثوابته، ولكن أيضًا بعض الملامح والآليات، حتى يؤسس لبناء نموذج إسلامى صحيح.

فى مقابل هذا التيار، ظهر تدريجيًا تيار يرى أهمية الأخذ عن العصر والحداثة على أساس أن لكل عصر ملامحه؛ لذا لا يمكن التعامل مع العصر الحالى إلا بأخذ ملامحه وعناصره الأساسية. وهنا يبرز دور النموذج العصرى للحياة، والمتمثل فى الحداثة الغربية؛ حيث إنه النموذج المتقدم، والمشكل لملامح العصر. فيتم التوفيق بين الحداثة الغربية والمرجعية الإسلامية. ويتشكل اتجاه يأخذ عن الغرب نموذجه خاصة السياسى، بما لا يتعارض مع

الشريعة الإسلامية، ويتم الحفاظ على الخصوصية الحضارية فى المجال الاجتماعى والخاص. وبهذا يتشكل تيار التوفيقية الإسلامية كجزء من تيار الصحوة الإسلامية.

وبين التقليدية والتوفيقية فى تيار الصحوة الإسلامية يتشكل تيار التجديد، الذى يقوم على أساس تجديد الحضارة الإسلامية، من خلال التمسك بثوابتها والتجديد فى الفروع والمتغيرات. وهذا التوجه يستفيد من كل تجارب الحضارات الأخرى، بما فيها الحضارة الغربية، ولكنه لا يلزم نفسه بأى نموذج عملى مستمد من حضارة أخرى، بل يستفيد من الأدوات والآليات والوسائل والمعارف، ويضعها فى صياغته الخاصة، حتى تصبح مناسبة لثوابت الحضارة الإسلامية، فيتم إعادة إنتاج كل ما يتم اقتباسه من الحضارات الأخرى، فى صورة جديدة حتى يتم تجديد المرجعية الحضارية الإسلامية.

**الأمة المحافظة**

المجتمعات العربية والإسلامية تقع فى موضع المجتمعات التى تسمى تقليدية أو شرقية، وهى مجتمعات محافظة فى غالبها. فالتيار الغالب على مجتمعات الأمة هو التيار المحافظ. وتلك مسألة هامة تشرح الفروق بين المجتمعات، وتسمح لنا بتحديد موضع كل حركة على خريطة مجتمعها، وليس على خرائط مجتمعات أخرى.

والمجتمع المحافظ هو المجتمع الذى يسود فيه التدين والتمسك بالدين، وهو المجتمع الذى يقوم على التمسك بقيم الأسرة، وهو المجتمع الذى يحافظ على هويته الحضارية ويتمسك بها؛ لذا فإن مجتمعاتنا فى أغلبها محافظة.

لذا يصبح الاتجاه الغالب وتيار الأغلبية فى مجتمعاتنا هو الاتجاه المحافظ. ولا يصح هنا أن نعتبر الاتجاه المحافظ ممثلاً لتيار اليمين فى المجتمع كما يحدث فى الغرب، فما دام غالب المجتمع محافظًا؛ لذا تصبح المحافظة هى تيار الأغلبية وهى تيار الوسط؛ حيث يغلب علميًا تصنيف التيار السائد أو تيار الأغلبية فى الموضع المتوسط لأى تصنيف، فتصبح التيارات الأخرى الممثلة للأقلية على يمين ويسار هذا الموضع.

وتيار الأغلبية الذى يمثل تيار الوسط تتفرع منه تيارات فرعية، كما أشرنا، خاصة أن تيار الأغلبية تيار عريض، وهو أوسع من تيارات الأقلية؛ لذا يمكن تصنيف التيار المحافظ،

أى تيار الوسط، إلى التيار المحافظ التقليدى (يمين الوسط) الذى يوسع من مساحة المأخوذ من التجربة التاريخية، والتيار المحافظ التوفيقى (يسار الوسط) الذى يزيد من مساحة المأخوذ من التجربة الغربية ويوفق بينها وبين المرجعية الإسلامية. ثم فى قلب التيار المحافظ، نجد التيار المحافظ التجديدى أو المحافظ الوسطى (الوسط أو المركز)، الذى يركز على أهمية التجديد الحضارى والتوازن بين الثوابت الحضارية والتعلم من تجارب الآخرين.

وخارج التيار المحافظ أى تيار الوسط نجد على اليمين التيار المتشدد (اليمين)، وهو يميل للبحث عن حالة النقاء، وهو يمثل حالة الدفاع عن النفس، والتركيز على التميز عن العصر، كما يركز على الدفاع عن الخصوصية الحضارية وتمييزها عن كل ما يختلف عنها.

وفى اليسار، نجد التيار المتحرر (اليسار)، وهو التيار العلمانى الذى يؤمن بالتوجهات الغربية الليبرالية أو الغربية اليسارية، التى تخرج بالكامل عن المرجعية الحضارية الإسلامية، ويمثل حالة تكيف مع النموذج الغربى، وتكريس لتراجع المرجعية الحضارية، واستبدال الذات الحضارية بالذات الحضارية للغرب المتقدم.

واستخدام تعبيرات اليمين واليسار هنا تساعد على التصنيف والمقارنة بين الاتجاهات وتحديد مكانها بالنسبة لبعضها البعض، مع ملاحظة أن تلك التعبيرات تتوقف على تحديد نقطة الوسط، أى الاتجاه الغالب، والتى تختلف من حضارة إلى أخرى، وهى فى الحضارة الإسلامية تتمثل فى التيار المحافظ. والفروق بين المواضع المختلفة ليست مسألة كمية صرفة، بل هى تعبر عن اختلاف مكونات الاتجاه الفكرى، من حيث شدتها ومركزيتها؛ مما ينتج عنه اختلاف كيفى فى النهاية. فكلما زاد الاختلاف الكمى، تحول إلى اختلاف كيفى.

**الإفراط والتفريط**

وبهذا يمكن مطابقة التصنيف السابق على المعيار الحضارى الإسلامى الأساسى، وهو معيار الإفراط والوسط والتفريط. فالوسط يمثل التيار المحافظ، وبه تنوع داخلى، كما أشرنا. والإفراط يمثل النقطة الأخيرة فى أقصى الاتجاه اليمينى، والتفريط يمثل النقطة الأخيرة فى أقصى الاتجاه اليسارى.

والنظر للوسط (التيار المحافظ) بوصفه تياراً عريضاً، وتصنيفه إلى تيار محافظ تقليدى، وتيار محافظ وسطى، وتيار محافظ توفيقى، يسمح بفهم فكرة الوسط، فهى فى الواقع

متعددة التوجهات؛ لأنها جوهر الفكرة الإسلامية؛ لذا نجد فى داخلها عدة اتجاهات، مما يفسر لنا التعدد داخل الوسط. فاتجاه الوسط (التيار المحافظ) يتداخل أحيانًا مع التشدد؛ لأن فى يمينه تيارًا تقليديًا، إذا تشدد تداخل مع التيار المتشدد، والوسط يتداخل أحيانًا مع التحرر؛ لأن فى يساره تيار توفيقى، إذا تزايدت مرونته تداخل مع التيار المتحرر.

والوسط (التيار المحافظ الوسطى) حالة نموذجية، وهى الأصعب فى تحقيقها، فهى العدل والاعتدال والميزان، وهى بهذا نقطة الكمال والتكامل فى المشروع الحضارى الإسلامى، وكلما اتجه لها تيار أو حركة بعد عنها، وكلما بعد عنها حاول الاقتراب منها مرة أخرى.

**المواضع المتحركة**

يظل التصنيف عملية نسبية تهدف إلى الاختصار، بهدف الدراسة العلمية والفكرية. فالاختصار يفيد فى الفهم وتلخيص النتائج، ولكن من المهم أن يكون التصنيف تفاعليًا، بقدر ما تكون الظواهر تفاعلية أيضًا. فعندما يتعرض مجتمع محافظ لموجة من التغريب الوافدة من الخارج، سنجد أن التيار المحافظ أصبح يميل للتشدد، ولكنه تشدد فى موضعه، أى أنه تشدد تجاه موجة من التغريب، وليس موقفًا مبدئيًا مستمرًا. وكذلك سنجد مواقف تدعو للمرونة، لتحقيق مصالح تيار الصحوة الإسلامية، فنجد التيار المحافظ يميل للأخذ بآليات العصر لتحقيق مصلحة لمسار الحركة الإسلامية. وهكذا تتحرك كل الاتجاهات حسب الظرف؛ لذا لا يمكن الحكم على المواضع والمواقف بعيدًا عن اللحظة التى ظهرت فيها.

لهذا نعتبر تلك التصنيفات متفاعلة مع الموقف الراهن، وتفهم من داخله. خاصة أن تلك التصنيفات تتعلق بالمواقف العملية والاجتماعية والسياسية، وليس بالعقيدة الدينية والعبادات. فالموقف الاجتماعى الذى يعتبر اليوم نوعًا من الإفراط، قد يعد موقفًا وسطًا فى الماضى، وهكذا تتغير التصنيفات حسب اللحظة والموقف. كما يلاحظ أن المقصود بتصنيف تيار ما هو وضع عنوان يميز أغلب مواقفه، وليس كل موقف على حدة، فلا يوجد تيار تقليدى على طول الخط، أو توفيقى على طول الخط، بل إن التيار المحافظ الوسطى سنجده تقليديًا فى مواقف وتوفيقيًا فى مواقف، ولكن غالب مواقفه سنجدها وسطية، ومما هو غالب عليه يتحدد تصنيفه.

## داخل الحركة الإسلامية

بالنظر فى التوجهات داخل الحركة الإسلامية، سنجد أنها تشمل معظم الاتجاهات الرئيسة التى توجد فى المجتمع. فهى تبدأ مع التيار المتشدد (اليمين) ثم التيار المحافظ (الوسط) بتياراته المختلفة وهى التقليدية والوسطية والتوفيقية، وكلها تمثل إطار التيار الإسلامى الواسع. ولكن على اليسار فى المجتمع، نجد التيار الليبرالى واليسارى العلمانى، وهو خارج إطار التيار الإسلامى الواسع، كما أن بعض توجهات التيار التوفيقى الإسلامى نجدها تقترب من التيار الليبرالى، فتبتعد عن نطاق الفكرة الإسلامية.

وتلك قضية مهمة، فالتوجه نحو الإفراط يبقى داخل إطار الفكرة الإسلامية، ولكن التوجه نحو التفريط يخرج من الفكرة الإسلامية؛ مما يجعل موقف التيار المحافظ التوفيقى (يسار التيار المحافظ) قلقًا ومتوترًا، فالموضع الذى يقوم على التوفيق بين الحداثة الغربية والفكرة الإسلامية هو موضع قلق، كثيرًا ما يؤدى إلى الموضع التالى له، وهو موضع الفكرة الليبرالية خارج الفكرة الإسلامية.

وعندما ننظر إلى الحركة الإصلاحية الإسلامية، نجدها تمثل التيار المحافظ (تيار الوسط). فجماعة الإخوان المسلمين مثلاً تمثل كلها اتجاهًا محافظًا إصلاحيًا. ولكن بداخلها يمكن التمييز بين التيار المحافظ الوسطى، وعلى يمينه الاتجاه التقليدى، وعلى يساره الاتجاه التوفيقى.

والتيار الإصلاحى يمثل الوسط الإسلامى، والوسط يبدأ قبل التشدد وقبل التحرر، وهو تيار عريض، لهذا أشرنا إليه بأنه التيار المحافظ، وقسمناه إلى المحافظ التقليدى والمحافظ الوسطى والمحافظ التوفيقى.

والأمة كلها هى أمة الوسط، والمرجعية الحضارية الإسلامية هى مرجعية أمة الوسط، والإفراط هو إفراط من داخل الفكرة، ولكن التفريط هو تفريط فى الفكرة. فأمة الوسط هو عنوان الأمة كلها، والوسط تيارها الغالب، وهو التيار المحافظ.

## الخلاصة

يشكل التصنيف السابق مدخلاً للتفسير والفهم. والتصنيفات السابقة لا تمثل فقط تيارات، بل تمثل عناوين لمراحل وكذلك لمواقف. وهى تمثل عوامل تفاعلية متحركة،

يساعد رصدها على فهم مسار تيار الصحوة الإسلامية، ومعرفة مآله. والتصنيف ليس حكمًا دينيًا أو أخلاقيًا، بقدر ما هو تبويب من باب الاختصار والتفسير. فالتصنيف أداة للفهم، فإذا استخدم فى معارك السياسة يصبح أداة للتشويش، وربما التشويه. ونؤكد على أن التصنيف مقصود به تحديد الموضع والموقع لكل اتجاه مقارنة بالاتجاهات الأخرى؛ بحيث تتجاور الاتجاهات القريبة من بعضها. كما يلاحظ أن المناطق البينية بين الاتجاهات تسع العديد من الحالات التى يصعب حصرها.

والوسط كموضع هو نقطة الجذب المركزية، وكل التوجهات تدور حوله، فهو إذن ميزان المرجعية الحضارية، وهو أيضًا تجسيد للحظة القوة والنهوض، وهو لحظة التجديد الحضارى.

## (٢)
## الحركة والمجتمع بين التشدد والتحرر

يهدف مشروع الإصلاح الحضارى الشامل إلى إصلاح المجتمع، ومن ثم إصلاح الأمة؛ لذا يصبح المجتمع هو المستهدف الرئيس لحركة الإصلاح. وكل تيارات الصحوة الإسلامية تستهدف المجتمع برسالتها، وتحاول نشر رؤيتها فى المجتمع، وتجميع المؤيدين لها، وقيادة مسار الأفكار والممارسات فى المجتمع.

ولكن تيارات الصحوة الإسلامية اختلفت فيما بينها فى الرؤى والمناهج؛ لذا تعددت مساراتها وآثارها على المجتمع. كما أن حالة المجتمع نفسها تتغير بين فترة وأخرى؛ لذا تتعدد رسالة الحركات الإسلامية للمجتمع، حسب الظرف الموضوعى الذى تواجه. وبين تعدد تيارات الصحوة الإسلامية، وتغير حالة المجتمع، تنتج حالة التفاعل بين الحركة والمجتمع، التى تحدد كيفية تأثير الحركة على مجتمعها، وبالتالى ما تحققه الحركة نحو غاياتها الإصلاحية. ومساحة الاختلاف بين السائد فى المجتمع والسائد لدى الحركة، تحدد نوعية تلك العلاقة، بل وتحدد موقف الحركة من المجتمع.

داخل هذا التفاعل بين الحركة الإصلاحية والمجتمع تنتج عدد من الحالات المميزة، والتى تمثل مراحل مهمة فى علاقة الحركة بالمجتمع، وترسم مسار التغيير الحاصل فى المجتمع.

## لحظة البداية

إذا نظرنا إلى سبعينيات القرن العشرين فى مصر، سنجد أن تيار الصحوة الإسلامية نشأ بوصفه دعوة جديدة على المجتمع، تريد تغيير حال المجتمع. وكانت الحالة الغالبة على المجتمع هى حالة تكيف مع الواقع الراهن، وأيضًا تكيف مع العوامل الخارجية المؤثرة. فقد كان المجتمع يتكيف مع الوافد الغربى، بما فيه من أنماط سلوكية؛ لذا فقد غلب على المجتمع الاتجاه التوفيقى، وغلب عليه التكيف مع متغيرات العصر. وجاءت الصحوة الإسلامية لتغير واقع المجتمع، وتعيده إلى التزامه الدينى والحضارى، فبدأت الحركات الإسلامية تقليدية إلى حد كبير، تركز على الثوابت أكثر من المتغيرات، وتحاول تأسيس الوعى الدينى والحضارى لدى العامة، وتهتم بالقواعد الحاكمة للالتزام الدينى. وهنا كان تيار الصحوة الإسلامية أكثر تقليدية من المجتمع، كما كانت بعض روافده تميل للتشدد، فأصبح تيار الصحوة الإسلامية فى مجمله أكثر محافظة من المجتمع. وتلك الصورة تفهم من خلال العلاقة التفاعلية بين المجتمع والحركة، فعندما يكون المجتمع متجهًا نحو المرونة والخروج النسبى من الهوية الدينية والحضارية، نجد الحركة تبدو أكثر تشددًا؛ لأنها تريد مقاومة حالة الانفلات الدينى والحضارى.

وإذا عدنا إلى ستينيات القرن العشرين، سنجد أن الحركة الإسلامية كانت تبنى نفسها داخل إطار خاص بها، ولم تكن تندمج مع المجتمع أو تنشر رؤيتها داخله. ففى فترة الستينيات كان المجتمع متعلقًا برؤى بعيدة عن هويته الدينية والحضارية، ولم يكن لديه الاستعداد أو الرغبة فى التفاعل مع الفكرة الإسلامية؛ لذا كان تيار الصحوة الإسلامية يولد بوصفه بؤرًا وجماعات صغيرة تبنى نفسها، أكثر من كونها تحاول تغيير المجتمع. فالمجتمع كان يبدو بعيدًا عن هويته الحضارية، متكيفًا مع رؤى غربية، فكان الإيمان الدينى ينحصر فى حدود فردية. ففى الستينيات لم يكن المجتمع مستعدًا لسماع رسالة تيار الصحوة الإسلامية، ولكن فى السبعينيات كان المجتمع يريد العودة لهويته وثقته فى ذاته، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وهنا تغير موقف تيار الصحوة الإسلامية، فأصبح يدعو المجتمع لرؤيته.

فلحظة البداية تمثلت فى بناء نواة لتيار الصحوة الإسلامية، ثم تتحول هذه النواة إلى الدعوة لرؤيتها بين المجتمع. وفى كل تلك المراحل، كانت الحركة الإسلامية بمختلف

روافدها، أكثر محافظة من المجتمع نفسه. وتلك اللحظة حدثت من قبل فى عشرينيات القرن العشرين، عندما ظهرت جماعة الإخوان المسلمين، ولكن فى البداية الأولى ظهرت الحركة الإصلاحية وتفاعلت مع المجتمع ونشرت دعوتها، ولم يكن المجتمع يميل للتحرر والتوفيقية كما حدث فى السبعينيات، ولم تكن الحركة تحتاج إلى بناء نواتها الرئيسة قبل الانخراط فى دعوة المجتمع.

فكلما كان المجتمع بعيدًا عن هويته التى تدعوه لها تيارات الإصلاح والتغيير، ظهرت الفجوة بين المجتمع وبين الحركة، وكانت الحركة أميل للتشدد، لترد على ميل المجتمع للتحرر.

**لحظة الانتشار**

فى ثمانينيات القرن العشرين شهدت مصر نموًا واضحًا لتيار الصحوة الإسلامية، وتزايدًا ملحوظًا فى حجم التأييد له. وهنا اكتسبت حركات الصحوة الإسلامية ثقة كبيرة فى حضورها وتأثيرها. ومع تزايد حجم المؤيدين لها، مال تيار الصحوة الإسلامية إلى لحظة الحماس، التى توحى له بأن أهدافه بدأت فى التحقق أو أنها قريبة من التحقق. ومع لحظة الحماس ولحظة التأييد الشعبى الواسع، ينتشر تيار الصحوة الإسلامية فى مختلف أرجاء المجتمع، ولكنه لا يبنى رؤيته بصورة عميقة، فيغلب الانتشار على التأسيس والعمق. وتظهر العديد من التيارات المتشددة، ويفتح الباب أمام رؤى غريبة أو غير تقليدية، وتتحقق بذلك لحظة الفوز بالتأييد الشعبى، ولكن تلك اللحظة الحماسية المهمة تكشف الكثير من سلبيات تيار الصحوة، وتنبه إلى أهمية بناء الرؤية الدينية والحضارية الرشيدة لتيار الصحوة الإسلامية.

وفى لحظة الانتشار يميل المجتمع مع تيار الصحوة الإسلامية إلى المحافظة، وربما يميل معه نحو التشدد، وينتقل المجتمع سريعًا من حالة التكيف والتوفيق مع الواقع الراهن إلى حالة تمييز الذات الحضارية بصورة ربما تكون متشددة أو ظاهرية؛ مما يغلب حالة التمييز عن الواقع عن محاولة إصلاح هذا الواقع.

## لحظة الترشيد

من ثمار حالة الانتشار الكبير لتيار الصحوة الإسلامية، تبدأ مرحلة ترشيد الصحوة الإسلامية، حتى تعبر عن رؤية عميقة لهويتها الدينية والحضارية، وحتى تصبح مؤهلة لتغيير الواقع وتحقيق التجديد الحضارى. وهنا يصبح التجديد الحضارى هو الميزان الذى ترشد إليه الصحوة الإسلامية، لتصبح ممثلة للتيار المحافظ الوسطى، وتبتعد عن التشدد الذى ميزها، كما ترشد اتجاهها التقليدى المتعاظم.

وقد شهدت مصر تلك الحالة فى تسعينيات القرن العشرين؛ حيث بدأ رموز الصحوة الإسلامية فى ترشيد تلك الصحوة، وبعد أن قادت تيارات الصحوة الإسلامية المجتمع إلى المحافظة التقليدية أو التشدد، بدأت تيارات الصحوة الإسلامية ورموزها عملية مراجعة من أجل تحقيق التوازن لتيار الصحوة الإسلامية، وتحقيق التوسط والاعتدال فى فكرة الصحوة الإسلامية ومنهجها. وبين العديد من التيارات التى عملت داخل وعاء تيار الصحوة الإسلامية، تبدأ الحركة الإصلاحية فى قيادة عملية الترشيد ممثلة فى جماعة الإخوان المسلمين، كما تبدأ رموز فى قيادة عملية الترشيد على رأسها الشيخ العلامة يوسف القرضاوى، وأيضًا يظهر رواد التجديد الحضارى، وتتشكل نخبة متميزة من مفكرى المشروع الحضارى الإسلامى. ولم يكن ظهور جيل من مفكرى الصحوة الإسلامية إلا دليلاً على دخول تيار الصحوة الإسلامية مرحلة الترشيد والعمق الفكرى والحضارى. وهكذا نجد الحركة ترشد من مسارها، وتحاول تحقيق التوازن فى رؤيتها.

ومع تسعينيات القرن العشرين، تظهر مبادرة وقف العنف من قيادات الجماعة الإسلامية فى السجون المصرية، ولم تكن تلك المبادرة إلا دليلاً إضافيًا على وصول تيار الصحوة الإسلامية إلى مرحلة الترشيد، التى تعيد صياغة مواقفه بعد أن انخرط فى مواجهة عنيفة مع الدولة انتهت بمواجهة عنيفة مع المجتمع أو قطاعات منه.

ويصبح عقد التسعينيات هو المرحلة التى تنتج فيها صورة تأسيسية للتيار المحافظ الوسطى، الذى استطاع بلورة مواقفه بصورة تعمق رؤيته، وتميزها عن الرؤى الأخرى. فأصبح التيار المتشدد واضحًا، والتيار المتحرر واضحًا، وتحقق للتيار المحافظ الوسطى موضعه المتميز بين التشدد والتحرر.

ولكن التسعينيات أيضًا تشهد ميلاد المواجهة المسلحة بين تيار الجهاد المسلح والقوى العظمى ممثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية. فقد أصبح للمواجهة المسلحة مع قوى الهيمنة الغربية تيارها وله رؤيته التى تغلب المواجهة المسلحة على غيرها من المناهج. وهنا تتميز تيارات الصحوة الإسلامية عن بعضها البعض، ويظهر لكل تيار خصوصيته ومجاله الذى يعمل فيه. ويتحرك تيار الجهاد المسلح نحو ساحات المواجهة العسكرية، ويتحرك تيار الإصلاح إلى الداخل، ويبنى كل تيار رؤيته، وتصبح ساحة تيار الصحوة الإسلامية واضحة المعالم.

**ما بعد الترشيد**

ولكن أى تيار لا يتحول إلى حالة جامدة، خاصة التيارات الحية والفاعلة. فقد أدت مرحلة الترشيد إلى حفظ التوازن النسبى للمجتمع، واستطاعت الحركة الإصلاحية تحقيق وزنها النسبى داخل المجتمع، حتى تحقق توازنه فى الوسط، وتحقق التوجه التجديدى الحضارى. وبهذا تشكلت حالة أكثر اتزانًا، بين تيار يغلب عليه التوجه المحافظ التقليدى ويركز على الثوابت والأسس، والتيار المتشدد الذى يميل للدفاع عن الذات الحضارية والدينية بالتشدد، والتيار المحافظ الوسطى الذى يريد تحقيق التوازن بين الثوابت والمتغيرات. ومع عملية تحقيق الترشيد، ومحاولة البعد عن التشدد، تظهر حالة من المرونة الكافية لتحقيق الترشيد، وتحقيق التجديد والوسطية، ولكن تلك الحالة سرعان ما تتفاعل مع الظروف المحيطة بها، لتصبح حالة من المرونة بأكثر مما تحتمل الفكرة، وهنا يتمدد الاتجاه المحافظ التوفيقى، بوصفه محاولة لتوفيق أوضاع ثوابت المشروع الإسلامى مع الواقع المعاصر.

ومع تزايد درجة المرونة النسبية، يحدث نوع من الخلل فى منطقة الوسطية التجديدية، وتبدو ملامحها غير محددة. وتتعدد الرؤى الأكثر مرونة؛ مما يدفع الشيخ العلامة يوسف القرضاوى للكتابة ليس من أجل ترشيد الصحوة، بل للكتابة من أجل تأكيد المبادئ الأساسية للرؤية الوسطية خاصة فى السياسة. وتظهر الحاجة إلى نوع من الترشيد، ولكن فى اتجاه مختلف. فالترشيد الأول كان فى مواجهة التشدد، ولكن الترشيد الثانى أصبح فى مواجهة التحرر.

لذا يشهد العقد الأول من القرن الحادى والعشرين عملية تصحيح مسار، لتأكيد ثوابت الرؤية المحافظة الوسطية؛ مما يقوى من الاتجاهات المحافظة التقليدية، ويقوى أيضًا من الاتجاهات المتشددة، حتى يتم تأكيد الملامح المميزة للمشروع الإسلامى، وتأكيد تميزه عن غيره من المشاريع، وتحديد الفواصل التى تفصله عن غيره من الرؤى، حتى تكون له هويته المميزة والواضحة، رغم قدرته على التكيف مع الأوضاع المتغيرة والمعاصرة.

وهنا نجد المجتمع نفسه يستجيب للتيار المتشدد بأكثر مما كان عليه من قبل، فى توجهه نحو المزيد من التأكيد على ثوابت الرؤية الإسلامية، وفى محاولة لتحديد الفواصل بين الرؤية الأصلية للهوية الحضارية والدينية للمجتمع، وبين الرؤى التغريبية. ويحدث هذا فى لحظة تتزايد فيها شدة العولمة وهيمنة الأفكار الوافدة؛ مما يعنى أن مسار حركة المجتمع ومسار تيار الصحوة الإسلامية، يتجه نحو التأكيد على الخصوصية الحضارية، والوقوف أمام احتمالات الذوبان فى متغيرات العصر، وهو ما يؤدى إلى الذوبان فى الرؤية الغربية الوافدة.

ويحاول التيار المحافظ الوسطى تأكيد الوسطية والتوازن فى نفس الوقت، وتحديد مساحة الثوابت ومساحة المتغيرات، والحدود المناسبة للمرونة وتلك التى لا تجوز فيها المرونة. وتستمر عملية الترشيد المضاد، أى الترشيد فى مواجهة التيار المتحرر، بعد أن كان الترشيد فى مواجهة التيار المتشدد فى مرحلة سابقة.

## مسار تيار الصحوة

فى عملية التفاعل بين تيار الصحوة الإسلامية والمجتمع، تحدث عملية فرز متتالى للأفكار والرؤى. ففى لحظة يغلب على المجتمع العديد من التيارات والتوجهات، ولكن بعض تلك التوجهات تنتهى مع الوقت. ورغم تحرك المجتمع نحو التحرر أحيانًا ونحو التشدد أحيانًا أخرى، وأيضًا رغم تحرك تيار الصحوة الإسلامية نحو التشدد أحيانًا والمرونة أحيانًا أخرى، فإن تلك الحركة لا تعيد مشاهد التاريخ. فمقدار ما يحدث من تشدد فى مرحلة ما، لا يحدث فى المراحل التالية، كما أن مقدار ما يحدث من مرونة فى مرحلة ما، لا يتكرر بنفس الدرجة فى مراحل تالية. فحركة المجتمع تميل نحو التوسط والاعتدال، وأيضًا تيارات الصحوة الإسلامية تميل كلها نحو الاعتدال. فالتيار المتشدد يصبح مع الوقت

أكثر اعتدالاً مما كان عليه فى الماضى، وتيار الوسط يكتسب المزيد من القدرة على التمسك باعتداله.

وما يحدث فى تلك العملية الجدلية بين الحركة الإسلامية والمجتمع يؤدى لتبلور التيارات المعبرة عن المجتمع، ويشكل ملامحها. فيكتسب تيار الصحوة الإسلامية ملامحه وتتحدد تياراته ومساراته، ويبنى قواعد مشروعه.

## (٣)
## الأغلبية والأقلية فى تيار الصحوة

بالنظر للعلاقة بين الحركة الإسلامية والمجتمع، نجد أن المسافة الفاصلة بينهما تمثل مؤشراً مهماً لمسار التفاعل بينهما. ولكن هذه المسافة ليست ثابتة، بل هى متغيرة، وتغيرها يؤشر لحركة التغير الحادثة للحركة الإسلامية والمجتمع. من هنا تكتسب المسافات بين الحركات الإسلامية والمجتمع دلالة خاصة؛ لأنها تشير إلى صورة العلاقة فى الماضى والحاضر، كما تشير لصورة العلاقة المتوقعة فى المستقبل. يدخل فى هذا الباب قضية اندماج الحركة الإسلامية فى المجتمع، أو عزلتها عنه، بوصفها حالة تشرح العلاقة بين الحركة والمجتمع، كما تشرح المسافة الفاصلة بينهما.

وكل الحركات الإسلامية الممثلة لتيار الصحوة الإسلامية تمثل مشروع إصلاح؛ لأنها تقدم رؤية للمجتمع، يفترض أنها غير منتشرة فى المجتمع بالقدر الكافى. فتيار الصحوة الإسلامية هو تيار تغيير، يرى أن الوضع الحالى يحتاج لتغيير وإصلاح، وبالتالى فكل حركات الصحوة الإسلامية تعمل من أجل التغيير، مع تنوع المناهج والرؤى. وعليه يقع تيار الصحوة الإسلامية فى مساحة من المجتمع، وتبقى مساحات أخرى تفصله عن بقية المجتمع، وهى تلك المسافات التى يمكن رصدها لمعرفة التفاعل بين الحركات الإسلامية والمجتمع.

### الحالة المثالية

يمكن البدء بتعريف الحالة المثالية للحركة الإسلامية، وهى الحالة التى تكون فيها الحركة مندمجة بالكامل فى المجتمع، أى تصير جزءاً منه غير مختلف عنه. وهى تلك الحالة التى

تتحول فيها الحركة الإسلامية إلى أغلبية معتبرة داخل المجتمع، لدرجة تجعل رؤية الحركة هى رؤية أغلبية المجتمع، وعليه لا توجد مسافة فاصلة بين الحركة والمجتمع، بقدر ما توجد مسافة تفصل تيارات الأقلية عن أغلبية المجتمع، وعن الحركة الإسلامية السائدة أيضًا. وتلك الحالة لم تحدث بعد، فلم تتحول حركة من حركات تيار الصحوة الإسلامية إلى أغلبية فى المجتمع، لدرجة تجعها ممثلة للفكر السائد فى المجتمع.

فمعظم مكونات تيار الصحوة الإسلامية تعمل على نشر رؤيتها بين الناس، ولم تصل أى منها إلى تحقيق الأغلبية المجتمعية، والتى تتحقق من خلال سيادة رؤية معينة اجتماعيًا؛ مما يجعلها تمثل الرؤية السائدة، والفكرة المهيمنة على المجتمع.

**الوزن النسبى للحركة**

كلما كانت حركة ما تمثل وزنًا نسبيًا كبيرًا داخل المجتمع، كانت تلك الحركة مرشحة لتصل فى وقت من الأوقات إلى الأغلبية المجتمعية. وهنا نميز بين الأغلبية المجتمعية والأغلبية السياسية؛ حيث إن الأخيرة تعنى حصول حركة على أغلبية تمكنها من الوصول للسلطة، أما الأغلبية المجتمعية فتعنى أن الحركة نشرت رؤيتها وتصورها بين الناس، لدرجة تجعل تلك الرؤية هى الحاكمة فى المجال الاجتماعى، سواء بسبب ما قامت به الحركة من نشر لرؤيتها، أو لأن رؤيتها توافقت مع رؤى أخرى، وأصبحت جميعًا تمثل رؤية سائدة فى المجتمع. ومعنى هذا، أن الحركة قد تصل إلى الأغلبية، من حيث سيادة رؤيتها مجتمعيًا، رغم أن أعضاءها ومؤيديها ليسوا أغلبية فى المجتمع. وهنا تكون الأغلبية للفكرة؛ مما يجعل الحركة تمثل التنظيم المركزى لتلك الفكرة، حتى وإن لم تصل درجة العضوية والتأييد المباشر إلى نفس حجم انتشار الفكرة فى المجتمع.

وتلك الحالة تمثل تحول الحركة إلى تيار، فكلما استطاعت الحركة نشر رؤيتها بين الناس، لدرجة جعلت هذه الرؤية مشكلة لرؤية الأغلبية، حتى وإن لم يصل حجم العضوية والتأييد للحركة للأغلبية، فإن تلك الحركة تصبح تيارًا سائدًا فى المجتمع. وبصورة أخرى، فكلما انتشرت فكرة بين الناس، وأصبح انتشارها أكبر من حجم الحركة أو التنظيم الذى يحملها، أصبح المؤيدون للفكرة ممثلين لتيار، تمثل الحركة العمود الفقرى له.

وعليه تصبح الأوزان النسبية للحركات الإسلامية تمثل حجم الارتباط المباشر لها، وحجم التأييد لفكرتها. ويحدد الوزن النسبى للحركة المسافة التى تميزها عن المجتمع، أو التى تفصلها عنه. فكلما زاد الوزن النسبى للحركة، قلت المسافة الفاصلة بينها وبين المجتمع، وتكون فكرتها قد انتشرت بصورة تقلل الفجوة الحادثة بين الرؤى السائدة فى المجتمع، ورؤية الحركة.

ويتشكل بذلك معيار الأغلبية والأقلية، ففى داخل تيار الصحوة الإسلامية توجد حركات تمثل أغلبية تيار الصحوة، وحركات أخرى تمثل أقلية تيار الصحوة. وتصبح تلك الحركات ممثلة لأغلبية وأقلية فى المجتمع، إذا ظل دورها داخل تيار الصحوة الإسلامية محافظًا على وزنه النسبى.

**وزن تيار الصحوة**

الملاحظ أن تيار الصحوة الإسلامية بكل فروعه أصبح يمثل تيارًا جارفًا فى المجتمعات العربية والإسلامية. كما أن الفكر والرؤى السائدة داخل الأمة ينتمى معظمها لتيار الصحوة الإسلامية؛ لذا يمكن القول بأن تيار الصحوة الإسلامية فى مجمله يمثل نسبة تقترب من الأغلبية داخل الأمة، أو تزيد. فقد حدث تحول مهم بين بدايات الصحوة الإسلامية فى السبعينيات من القرن العشرين، وما وصلت له فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين؛ حيث بدأ تيار الصحوة الإسلامية ممثلاً لأقلية داخل المجتمع، ثم تحول إلى أغلبية؛ لذا يمكن القول بتضاؤل المسافة بين المجتمع وتيار الصحوة الإسلامية؛ حيث إن هذا التيار فى مجمله يمثل أغلبية داخل المجتمعات العربية والإسلامية؛ لذا تصبح المسافة بينه وبين المجتمع ليست مسافة فاصلة، بل هى مسافة تتشكل بسبب وجود أقلية خارج إطار تيار الصحوة الإسلامية.

ومن المهم تعريف أسس تيار الصحوة الإسلامية، فهو تيار قام على استعادة التدين والإيمان والالتزام الدينى، واستعادة الهوية الحضارية الإسلامية، والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتعميق إدراك الأمة الإسلامية بأنها أمة واحدة تنشد النهضة والوحدة. وتلك الأفكار أصبحت من الشيوع الآن، بحيث لا نبالغ إذا قلنا إنها تمثل الرؤى السائدة فى المجتمع؛ مما يجعل تيار الصحوة الإسلامية ممثلاً للرؤية الشائعة، وعليه يكون تيار أغلبية.

وتصبح المسافة بين مجمل تيار الصحوة والمجتمع تتعلق برغبة المنتمين لتيار الصحوة لتعميق الرؤية الإسلامية، وتعميق الالتزام بها، والتأكيد على استمرارها كهوية أساسية تقاوم كل محاولات الغزو الفكرى والثقافى.

فتيار الصحوة الإسلامية انتشر لدرجة واضحة، ولكنه يعمق وجوده حتى يتحول الانتماء له إلى التزام حياتى؛ مما يؤدى إلى أحداث تغيير فى الوضع العام للمجتمع والأمة، ويصبح الانتماء لتيار الصحوة هو فعل من أجل التغيير.

**داخل تيار الصحوة**

أما فى داخل تيار الصحوة الإسلامية فسنجد تيارات فرعية، لكل منها وزن نسبى. والمتابع لمسار الحركات الإسلامية، يجد أن تيار الوسط كان دائمًا هو التيار الأكثر انتشارًا، وهو الذى يمثل التيار المحافظ اصطلاحيًا، وهو التيار الأقرب إلى الاعتدال. ولكن يلاحظ أن نقطة الاعتدال تتحرك فى المجتمع؛ حيث تتحرك تبعًا للوضع العام، وفى كل مرحلة تتشكل نقطة الوسط أو الاعتدال، ويظل التيار المحافظ هو تيار الأغلبية. وفى المجتمعات العربية والإسلامية، كان التيار المحافظ هو التيار الغالب، ولكن هذا التيار أصابه قدر من الجمود والتردى مع فترات التراجع الحضارى، وجاءت الصحوة الإسلامية لتعيد تجديد التيار المحافظ، وتحى وعيه من جديد.

والتيار المحافظ ينمو تدريجيًا فى المجتمعات العربية والإسلامية، ليستعيد أغلبيته، وأيضًا ليستعيد دوره وفاعليته الاجتماعية، ومن ثم يصبح قادرًا على استعادة دوره السياسى؛ لذا يمكن القول بأن التيار المحافظ يمثل مركز المجتمع، وبالتالى لا تفصله فواصل عن المجتمع. وكل الحركات التى تنتمى لتيار الوسط، أى التيار المحافظ، تمثل الرؤى السائدة لدى المجتمع أو لدى أغلبيته، ولكنها تختلف عن الوضع القائم فى المجتمع فى أنها تحاول تحويل تلك الرؤى إلى فعل إصلاح ونهضة.

لذا يمكن التفرقة بين رؤية جماعة الإخوان المسلمين، وهى تنتمى لتيار الوسط، أو التيار المحافظ؛ حيث نجدها رؤية واسعة الانتشار، وتنتشر خارج إطار أعضاء الجماعة والمؤيدين لها، وبين منهج الجماعة الإصلاحى والذى يطالب الأمة بتحمل مسئولية الإصلاح والنهضة؛ حيث نجد أن التيار المحافظ المؤيد للرؤية الوسطية، الذى يقترب كثيرًا

من رؤية جماعة الإخوان لم يتحول بعد إلى كتلة نشطة تعمل من أجل الإصلاح. وهنا تظهر مسافة بين المنهج الحركى لجماعة الإخوان المسلمين والمجتمع، أكبر من المسافة بين رؤية الجماعة والمجتمع. ولكن تلك المسافة تخص الفعل والموقف العملى، ولا تخص الرؤية الحضارية.

ولكن داخل تيار الصحوة الإسلامية هناك تيارات متشددة، والناظر لتلك التيارات الفرعية، يجد أنها تقف دائمًا على مسافة من المجتمع، بل إنها تحافظ على تلك المسافة، وكأنها لا تريد اختصارها من ناحيتها، بل تقبل فقط اختصارها من ناحية المجتمع. وتلك التيارات تعمل على تأكيد الثوابت بتشدد يهدف إلى تحصين الثوابت من أى اختراق. وغالبًا ما يقوم التيار المتشدد بهذا الدور، ويصبح أحد العوامل التى تحصن الهوية والرؤية الدينية، والتى تدفع المجتمع لتحصين نفسه ضد التأثر بأى فكر وافد عليه. لهذا تبقى المسافة بين المجتمع والتيار المتشدد على حالها؛ حيث يميز التيار المتشدد نفسه عن المجتمع، ليظل يقوم بدوره فى تحصين ثوابت الأمة. ويتشكل مع الوقت تيار الأقلية داخل تيار الصحوة الإسلامية، وهو يبدأ كتيار منعزل، ومع الوقت يصبح تيارًا له خصوصيته، ويتفاعل مع التيارات الأخرى، كما يتفاعل مع المجتمع. ولكن تيار الأقلية المتشدد يدرك وظيفته فى النهاية، ويتحول إلى تيار مستقر، لا يريد الانعزال عن المجتمع، بقدر ما يريد تحصين هوية الأمة، فيدرك التيار المتشدد دوره، ويتجاوز مرحلة المواجهة مع المجتمع، ولكن يبقى مسافة بينه وبين المجتمع.

أما التيار المتشدد المسلح فيقوم بوظيفة أخرى، وهو ينعزل عن المجتمع، ويحاول تحقيق رؤيته بالسلاح، وبمواجهة كل عدوان خارجى بالسلاح، فيبقى تيارًا متشددًا ومنعزلاً.

والتيار المتشدد ليس هو تيار الأقلية الوحيد، ولكن هناك أيضًا التيار المتحرر الذى يركز على عملية التكيف مع الواقع الحالى، ومع النموذج العصرى للحياة، رغم أنه نموذج نابع من الحضارة الغربية، على أساس أن التكيف مع الواقع ضرورة. فالتيار المتحرر يمثل استجابة معاكسة للتيار المتشدد. فإذا كان التيار المتشدد يدفع لتحصين الفكرة الإسلامية، فالتيار المتحرر يدفع لتكييف الفكرة الإسلامية مع الواقع؛ لذا يظل كل منهما على أطراف التيار المحافظ السائد بكل مكوناته. وكما يحدث مع التيار المتشدد، فإن التيار المتحرر

تخرج منه رؤى منعزلة عن المجتمع وتخرج عن هويته، وتصبح اتجاهًا منعزلاً عن المجتمع.

وفى داخل التيار المحافظ، سنجد اتجاهًا وهو المحافظ التقليدى، ويمثل أقلية داخل التيار المحافظ، واتجاهًا آخر وهو المحافظ التوفيقى، ويمثل أقلية أخرى داخل التيار المحافظ. وكل منهما يتميز بمسافة أكبر بينه وبين المجتمع عن مجمل التيار المحافظ، وكلما ساد التيار المحافظ الوسطى، شغل مركز المجتمع، ومثل أكبر نسبة فيه.

**معادلة المسافات**

بالنظر لمسار تيار الصحوة الإسلامية، نجده يتجه من كونه أقلية داخل المجتمع، ليقترب من تحقيق الأغلبية. وتياراته الفرعية تستقر مع الوقت بين تيار يمثل أغلبية تيار الصحوة الإسلامية، وتيارات تمثل الأقلية، ثم تستقر أدوار تلك التيارات. فتقل المسافات نسبيًا بين مختلف تيارات الصحوة الإسلامية والمجتمع، وتخرج الاتجاهات الأكثر تشددًا والأكثر تحررًا من مسار تيار الصحوة الإسلامية، وتنعزل عن المجتمع؛ مما يدخل تيار الصحوة الإسلامية فى مرحلة أكثر رسوخًا، تحقق له تأثيرًا مجتمعيًا واسعًا، وهو ما يجعل تيار الصحوة الإسلامية ممثلاً للمجتمع، ويضعه فى مواجهة عملية الإصلاح والتغيير. ويتشكل التيار السائد القادر على توجيه حركة الأمة، نحو رؤيتها الحضارية الجامعة.

## (٤)
## تعميق الفجوة.. خطة ضرب الحركة الإسلامية

مع بروز التيار الإسلامى بوصفه تيارًا مؤثرًا على المشهد العام فى البلاد العربية والإسلامية، بدأت المعارك تظهر من داخل التيار الإسلامى نفسه؛ مما ساعد على تباعد مكوناته، وبالتالى حد ذلك من قدرته على التحول إلى تيار جامع له مساره المشترك. ولكن تلك المعارك الداخلية لم تكن كلها ذات طبيعة واحدة، فبعض المعارك والاختلافات التى تحدث داخل التيار الإسلامى تمثل مرحلة تشكل الفكرة الإسلامية، وتشكل مدارسها المعاصرة، وهى تأخذ مسارها حتى تتشكل الملامح الأساسية والمكونات المركزية للتيار الإسلامى. وبعض المعارك والاختلافات التى حدثت داخل التيار الإسلامى ارتبطت

بمواقفه واتجاهاته المختلفة من الواقع الراهن، وحيث إن الأوضاع الراهنة تمثلت فى استبداد الأنظمة الحاكمة وهيمنة القوى الغربية لذا أصبح الموقف من الواقع معقدًا، واختلفت التصورات حوله بصورة كبيرة، لدرجة أن الكثير من التباين داخل التيار الإسلامى نتج من الاختلاف حول الموقف من الواقع الراهن، وكيفية التعامل معه.

ومع اختلاف الموقف من الواقع، ظهر منهج التغيير بالقوة، واضطرت الكثير من التيارات الإسلامية إلى نفى علاقتها بهذا الاتجاه، حتى لا تدفع ثمن المواجهة المسلحة، كما اضطرت تيارات أخرى إلى بناء فاصل بينها وبين منهج التغيير بالقوة، حتى لا يتسرب بداخلها، واضطرت تيارات أخرى إلى الدخول فى معركة مع هذا التيار، لمنع انتشار استخدام القوة بين مختلف الفصائل الإسلامية، وهو ما قد يؤدى إلى نتائج سلبية على موضع التيار الإسلامى داخل مجتمعه.

**موقف الخصوم**

أضيف لذلك موقف النخب الحاكمة، ثم موقف القوى الغربية التى حاولت تمييز مواقفها من مكونات التيار الإسلامى بما يحقق مصالحها، وبما يحدث التباعد بين مكونات التيار الإسلامى، حتى لا يتحول إلى تيار أغلبية سائد. وأصبح موقف القوى المهيمنة والأنظمة الحاكمة سببًا فى صنع حوائط بين مكونات التيار الإسلامى، حتى تمنع تعامل تلك المكونات معًا. وهو ما ينتج عنه تعطيل عملية تطور التيار الإسلامى وتطور تصوراته وأفكاره، كما يمنع عملية التفاعل الإيجابى بين مختلف مدارس التيار الإسلامى. وبسبب تمييز الأنظمة الحاكمة بين الاتجاهات التى تعمل فى المجال السياسى، وتلك التى لا تعمل فى المجال السياسى، يتم وضع عراقيل تحول دون تفاعل أفكار الاتجاهات المختلفة داخل التيار الإسلامى، كما يفرض على بعض الاتجاهات التمسك بأفكار معينة، حتى لا يتغير موقف الأنظمة الحاكمة منها.

وأصبحت العلاقة بين التيارات الإسلامية تتوقف على الوضع السياسى القائم، فكلما كان النظام السياسى أكثر انفتاحًا، حدث تواصل بين التيارات الإسلامية، بما يساعد على تقريب وجهات نظرها، مع احتفاظ كل منها بتميزه. ولكن كلما كانت الأوضاع السياسية أقرب إلى الاستبداد الشامل، تعطلت عملية التفاعل الحر بين التيارات الإسلامية.

وتدخل الدول الغربية على خط العلاقة بين التيارات الإسلامية؛ حيث تبحث عن المعتدل طبقًا للمعايير الغربية؛ مما يساعد على تباين المواقف أكثر، كما يمهد للفصل بين من يصنف بوصفه معتدلاً عن غيره؛ حيث تجبر تلك التصنيفات الاتجاهات التى توصف غربيًا بالاعتدال على تمييز نفسها عن مجمل التيار الإسلامى، حتى تقييم الفواصل اللازمة للحفاظ على تصنيفها الغربى فى خانة الاعتدال. وبالطبع فإن الاعتدال فى المفهوم الغربى غير الاعتدال فى المفهوم الإسلامى، فالأول يعنى قبول العلمانية ولو جزئيًا، والثانى يعنى التوسط والعدل والتوازن.

## عرقلة التطور

تساهم تلك العوامل معًا فى تعطيل التطور التاريخى للتيار الإسلامى، وتعطيل تبلور مدارسه الأساسية، وبالتالى تعطيل أو عرقلة تحوله إلى تيار سائد، له حركة منتظمة، رغم التباين بين فصائله. فقوة التيار الإسلامى تتمثل فى تحوله إلى مشروع له أسس مشتركة، يتفق عليها كل المنتمين له، ثم يظهر تنوعه داخل إطار تلك الأسس، بما يشكل بداخله مدارسه وفصائله المتنوعة، والتى يحظى بعضها بأغلبية، ويمثل بعضها أقلية. ولكن كل العوامل الخارجية تساهم فى بقاء التيار الإسلامى وكأنه جذر منعزلة. وشدة التحديات التى يواجهها التيار الإسلامى، تدفعه للتفرق، فينتج عن هذا تيارات إسلامية، تعمل بصورة منفردة، وهذه ليست كل المشكلة. فالمشكلة تظهر إذا عملت الفصائل الإسلامية بصورة تجعل عمل كل فصيل يعرقل عمل الفصيل الآخر؛ بحيث تكون الحصيلة النهائية لعمل الفصائل الإسلامية أقل من مجموع قدراتها وقواها.

فسياسات الأنظمة الحاكمة وكذلك سياسات الدول الغربية، وأيضًا الظروف المعاصرة، تجعل جزءًا من معركة التيار الإسلامى مع الواقع يتحول إلى معركة داخل التيار الإسلامى نفسه؛ مما يستنزف قواه وقدراته، ويحد من تأثيره العام. فالتيار الإسلامى يواجه أوضاعًا تحاول تقسيمه إلى تيارات متصارعة، حتى إذا تصارع المعتدل مع المتطرف يمكن التخلص من كليهما فى نهاية الأمر. وهذا أحد أهم التحديات التى تواجه التيار الإسلامى، وتشكل مسار مستقبله.

### والحرب عليه توحده

وإذا كان الغرب يحاول وضع فاصل بين من يعتبره معتدلاً ومن يعتبره متطرفًا، فإن الأنظمة الحاكمة تحاول وضع فاصل بين من تعتبره تيارًا سياسيًا، ومن تعتبره تيارًا غير سياسى. وهنا يظهر التعارض بين موقف الأنظمة الحاكمة وموقف الغرب، فالغرب يقبل الاتجاه الإسلامى الذى يقبل العلمانية، ولكن الأنظمة الحاكمة ترفض تلك الاتجاهات؛ لأنها مدعومة غربيًا ويمكن أن تكون بديلاً عنها. والأنظمة الحاكمة تقبل عمل التيار المتشدد ما دام لا يعمل فى السياسة، ولكن الدول الغربية تعتبر الفكر المتشدد خطرًا عليها، وتعتبر انتشاره تهديدًا لمصالحها. من هنا يحدث التعارض بين مواقف الدول الغربية ومواقف الأنظمة الحاكمة، وهو ما ينتج عنه تحول مواقف الدول الغربية والأنظمة الحاكمة فى عمومها إلى حرب على التيار الإسلامى ككل؛ لأن الغرب لا يقبل إلا الإسلامى الذى يلتزم بالعلمانية والليبرالية، أى يقبل الإسلامى السابق، والأنظمة الحاكمة لا تقبل تأثير التيار الإسلامى على المجال العام والسياسة؛ لذا نجدها تواجه التيارات السياسية الإسلامية، ثم تواجه بقية التيارات غير السياسية إذا زاد تأثيرها وحضورها فى المجتمع.

وهنا يصبح التيار الإسلامى كله فى خندق واحد؛ حيث يعانى من عداء الأنظمة الحاكمة وعداء الغرب له، وبهذا يتوحد الموقف الذى يواجه الحركة الإسلامية فى عمومها فى نهاية الأمر. ومنه تظهر العوامل المشتركة، وتتأكد المسارات المتزامنة للتيار الإسلامى، وتبرز المميزات التى تميز كل تياراته عن غيره من التيارات السياسية، ولكن هذا الوضع لا يكفى لتبلور التيار الإسلامى السائد، ولكن يمهد له.

### بين التشدد والاعتدال

وفى داخل التيار الإسلامى، تظهر قضية التشدد والاعتدال داخل الفكرة الإسلامية، ويتأكد أهمية حسم العديد من القضايا الخاصة بكيفية التعامل مع الواقع. ولأن الاعتدال فى مفهوم الدول الغربية يخرج عن الفكرة الإسلامية بالكامل؛ لذا يصبح التيار الإسلامى الوسطى بالنسبة للغرب وأيضًا بالنسبة للأنظمة الحاكمة عدوًا؛ لأن اعتداله هو منهج وموقف من قضايا الحياة المعاصرة، لتحقيق التمييز بين الثوابت والمتغيرات. وحتى يتبلور الموقف المعتدل تحتاج الحالة الإسلامية للتعامل مع الواقع بحرية، حتى تختبر مقولاتها

وأفكارها تجاه الحياة العملية، ولكن الحصار المضروب حول الحركات الإسلامية يمنع لحد كبير التفاعل الحر مع المجتمع، وبالتالى يؤخر مرحلة الوصول إلى توافق داخل التيار الإسلامى حول الأسس المتفق عليها، وحول قواعد الاعتدال والوسطية.

ولكن التيار المتشدد يقوم بوظيفة أخرى، فهو أولاً يحمى أسس الفكرة الإسلامية ويمنعها من الذوبان فى سياق الضغوط التى تفرض على الأمة. وهو يؤدى دوراً فى عزل الأفكار المتحررة التى تخرج عن نطاق الفكرة الإسلامية؛ مما يجعل التيار المتشدد قادراً على إقامة فواصل مضادة لتلك الفواصل التى تقيمها الدول الغربية؛ حيث تحاول الدول الغربية عزل من تعتبره معتدلاً عمن تعتبره متطرفًا، ولكن التيار المتشدد يقوم بوضع فواصل مضادة لذلك، حتى يفصل من يعتبره الغرب معتدلاً عن الفكرة الإسلامية برمتها.

أما التيار الوسطى المعتدل، فإنه يطرح تحديات التطبيق والتعامل مع الواقع أمام التيار المتشدد؛ مما يجعل التيار المتشدد يميل تدريجيًا إلى الإجابة على أسئلة الواقع والتطبيق وتحديات التنفيذ، مع استمراره فى التركيز على الثوابت، ولكن تلك العملية تفتح المجال أمام اكتشاف المشترك بين التيارات. وتزداد مساحة المشترك بين تلك التيارات، بسبب موقف الأنظمة الحاكمة، التى توحد التيار الإسلامى فى مواجهتها، ليس على مستوى الفعل، بل على مستوى المبدأ. وهنا يقوم التيار الوسطى بدوره فى نشر مبدأ التوازن والتكامل فى الفكرة الإسلامية، مؤكدًا على الثوابت العامة، ومحددًا مجال الاجتهاد فى المتغيرات.

ومع استمرار التيار الوسطى فى الجهاد السياسى، يفتح الباب أمام توسيع منهج الإصلاح السلمى المتدرج؛ مما يجعله نهجًا منتشراً داخل التيار الإسلامى. وبسبب موقف الأنظمة الحاكمة من الجهاد السياسى، تتأكد صلابة مواقف التيار الوسطى المعتدل، ويتأكد أن اعتداله ليس عن لين، وإنما بحث عن الموقف المعتدل والعادل، وإصراراً على اتباع المنهج الإصلاحى.

### تقسيم العمل

ومع قيام كل مكون من مكونات التيار الإسلامى بدور مختلف عن الآخر، يظهر تقسيم العمل الضمنى، الذى لا ينتج عن تخطيط، بل ينتج تلقائيًا نتيجة التجربة المعاشة

لفصائل التيار الإسلامى. فنجد من يركز على العمل الدعوى، ومن يركز على العمل العام، ومن يركز على الرؤية الإصلاحية الشاملة. ونجد من يدخل المجال السياسى ومن يعتبر أن ترك السياسة هو من السياسة. ورغم أن تلك التباينات تنعكس فى حالة من الصراع أو المواجهة بين فصائل التيار الإسلامى أحيانًا، فإنها فى النهاية تؤدى عمليًا إلى نوع من تقسيم العمل؛ حيث يقوم كل فصيل بدور مختلف عن الآخر؛ مما يجعل التيار الإسلامى أكثر انتشارًا، كما يجعله أكثر تعبيرًا عن التباين داخل المجتمعات العربية والإسلامية. وهو ما يحول الخلاف بين فصائل التيار الإسلامى إلى تنوع داخل الحالة الإسلامية، تعكس التنوع داخل إطار الفكرة الإسلامية، والتنوع المناظر لها داخل المجتمعات العربية والإسلامية. ومع تحقيق التنوع داخل التيار الإسلامى، يصبح أكثر قربًا من تمثيل الأغلبية داخل المجتمعات.

ولكن تحدى استخدام السلاح يبقى حاضرًا، فمن الصعب التوفيق بين من يرفض استخدام السلاح فى عملية الإصلاح، ومن يعتبر السلاح هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق التغيير. فمنهج التغيير بالقوة يختلف كثيرًا عن منهج الإصلاح. فالأول هو تغيير من أعلى وبالقوة، والثانى هو تغيير من أسفل وبالدعوة. ويبقى هذا التحدى مؤثرًا على التيار الإسلامى، ولكن كثرة المواجهات العسكرية التى تتعرض لها أوطان الأمة الإسلامية، وما تتعرض له من احتلال عسكرى مباشر، تؤدى إلى صرف طاقة التغيير بالقوة نحو مواجهة الاحتلال العسكرى، وهو موقف تتفق عليه كل فصائل التيار الإسلامى. ومع تزايد المواجهات المسلحة مع العدو الخارجى، تقل تدريجيًا المواجهات المسلحة مع الأنظمة الحاكمة؛ مما يقلص احتمال وقوع الفصائل المسلحة فى مشكلة المواجهة المسلحة مع المجتمع أو جزء منه، بسبب تمدد مواجهتها المسلحة مع الأنظمة الحاكمة؛ مما قد يؤدى فى النهاية إلى التمييز بين الجهاد المسلح فى مواجهة الاحتلال العسكرى، والجهاد السياسى فى مواجهة الاستبداد المحلى. ولكن هذه المرحلة لن تتحقق بسهولة، فالأنظمة المستبدة أصبحت تمثل نوعًا من الاستعمار المحلى، وهى تمثل حليفًا قويًا للاستعمار الخارجى؛ مما يجعلها تقف فى خندق العدو، وهو ما يجعل الوقوف أمامها بالسلاح من قبل الفصائل الإسلامية المسلحة أمرًا محتملاً.

ومنهج التغيير بالقوة يمكن أن يتراجع بقدر ما تنجزه مناهج الإصلاح المختلفة، فكلما أصبح الجهاد السياسى والجهاد الدعوى أداة فاعلة فى حماية المجتمعات وتقويتها أمام النظم الحاكمة الخارجة عن مرجعية الأمة، تراجعت فرص استخدام السلاح فى قضية الإصلاح الداخلى.

**بين الصراع والتكامل**

تؤدى الحالة الراهنة فى مجملها إلى تحول التنوع داخل فصائل التيار الإسلامى إلى خلافات وصراعات، ثم تحولها إلى عناصر تزيد من قوة التيار الإسلامى، ثم تحولها إلى حالة من حالات تقسيم العمل بين تيار واسع الانتشار. ولكن دورات تلك التحولات تتكرر، فيزداد الخلاف أحيانًا ويقل أحيانًا، نتيجة تعقد الواقع الذى يواجهه التيار الإسلامى، فكلما حقق الجهاد المسلح انتصاراً على العدو الخارجى، زاد التقارب بين فصائل التيار الإسلامى، وكلما حقق الجهاد السياسى نجاحًا داخليًا، زاد التقارب بينهم، وكلما حاول الغرب والنخب التابعة له استمالة فصيل لهم، حدث تقارب بين الفصائل الأخرى. وفى المقابل كلما تراجعت الحالة الإسلامية تحت الضغوط والحصار، زاد التباعد بين فصائل التيار الإسلامى.

وهكذا تدور دورة حياة الفصائل الإسلامية، فى معركة متصلة من أجل الإصلاح والتغيير، وتتشكل حالتها تبعًا لما يحدث فى المواجهة مع خصومها وأعدائها، الذين يعملون على تعميق الفجوة داخل التيار الإسلامى، فتزداد خلافاته الداخلية، ثم تتحول إلى تنوع وثراء. وتتشكل ملامح التيار الإسلامى تبعًا لما يحققه على أرض الواقع، وكأن تبلور هذا التيار وتعبيره عن الأمة وانسجام مكوناته رهن بما يحققه على أرض الواقع من إنجاز.

## (٥)

## لتفكيك الأمة.. يجب تفكيك التيار الإسلامى

ظل هدف الاستعمار هو تفكيك الأمة الإسلامية، سواء فى مرحلة الاستعمار العسكرى المباشر، أو فى مرحلة الهيمنة الغربية والاستعمار غير المباشر. فلم يغب عن الغرب؛ أن الأمة الإسلامية الموحدة هى التحدى الحقيقى لقدرته على الهيمنة على العالم. فقوة الحضارة الغربية وقدرتها على الهيمنة على العالم، وفرض عولمتها، تواجه بتحدٍّ

حقيقى، إذا توحدت الأمة الإسلامية، وأقامت نموذجها الحضارى الإسلامى؛ لذا أدخلت المنطقة العربية والإسلامية فى مرحلة التفكيك المتتالى، على مختلف الأصعدة.

وإذا كان التفكيك الأول بدأ بتفكيك الرابطة الإسلامية، فالمرحلة التالية للتفكيك وصلت لتفكيك الرابطة العربية، ولكن التفكيك لم يقف عند هذا الحد، فبدأ التفكيك العرقى والمذهبى والدينى، حتى باتت المنطقة وكأنها مجموعات متحاربة، أو مجموعات مستعدة للدخول فى حروب أهلية. وبدأ نشر ثقافة التفكيك، وهى ثقافة تبدأ بنشر الفكرة القومية، ولا تنتهى إلا مع العصبية الضيقة. وكأننا بصدد زرع العنصرية فى المنطقة العربية والإسلامية، لتشكيل عصبيات متناقضة، لا يمكنها أن تتوحد.

لم يصنع الغرب كل الصراعات فى المنطقة، بل صنع بعضها ومهد لبعضها واستخدم بعضها. وبعد أن تفككت الأمة، طلت العلمانية القومية القطرية التى تم زرعها منذ عهد الاستعمار العسكرى المباشر، لتصبح طوق النجاة من تلك الحالة المفككة. فالقومية القطرية تنهى النزاع بين القوميات بتفكيك العلاقة بينها وفصل كل قومية عن الأخرى. والعلمانية تنهى المشكلة بين المسلم وغير المسلم؛ لأنها تنحى الدين عن الحياة العامة وعن النظام السياسى وعن النظام الاجتماعى.

لقد زرع الاستعمار الغربى البذرة الأساسية للمشكلة، عندما قضى على الوحدة السياسية الإسلامية، وفكك الدول العربية والإسلامية، وظل يرعى تلك الحالة، ويقدم حلاً لها فى النموذج السياسى القومى القطرى. فالغرب رأى فى الأمة الإسلامية العدو الرئيس له، ووجد الحل فى تفكيك الأمة. والنزعة القومية تفكك الأمة وتضعفها، وتجعلها غير قادرة على مواجهة العدوان الخارجى، وتجعلها أيضًا عرضة لمزيد من التفكيك، وبهذا ينتهى أى أمل فى نهضة حضارية إسلامية جديدة، ويتخلص الغرب مما اعتبره المنافس الحضارى الأساسى له، أى الحضارة الإسلامية.

ولكن تلك الحالة المفككة لا يمكن أن تستقر إلا إذا تم تبنيها محليًا، وقامت نخبة بحمل مشروع التفكيك وتسويقه محليًا. فلا يمكن لمشروع التفكيك أن يظل غربيًا، فهذا يعنى أنه سوف يظل مشروعًا خارجيًا استعماريًا. وعندما سقطت الدولة العثمانية، ظلت الأمة الإسلامية تحلم باستعادة وحدتها، وظل نموذج الدولة الواحدة أو الكيان السياسى الموحد

حلمًا للأمة. وحتى يتم التخلص من هذا الحلم كان لا بد من نخبة جديدة تحمل المشروع القومى القطرى، وكانت تلك النخبة هى النخب العلمانية التى قادت حركة التحرر الوطنى. فقد اكتسبت شعبية وحضورًا بحملها لمشروع التحرر الوطنى ومواجهتها للاستعمار؛ مما مكنها من زرع المشروع القومى القطرى. ولكن تلك النخبة العلمانية تحولت إلى مشروع مستبد، واستشرى بها الفساد، وأصبحت متحالفة مع الغرب، وخرجت عن ثوابت الأمة الإسلامية، بل وخرجت حتى عن الثوابت الوطنية.

**الرد الإسلامى**

وكان ظهور الحركة الإسلامية، منذ بداية جماعة الإخوان المسلمين، يمثل تحديًا مستمرًا لمشروع التفكيك القومى القطرى. فالحركة الإسلامية قامت من أجل استعادة الوحدة الإسلامية، وأصبح شعار استعادة الوحدة هو شعارها المركزى، وغايتها الكبرى. وتشكلت بهذا قوى التفرق ممثلة فى النخب الحاكمة والنخب المتغربة والقوى الغربية، كما تشكلت محاولات الوحدة ممثلة فى الحركة الإسلامية، فأصبحنا بصدد حالة من التدافع الداخلى، بين قوى تكرس حالة التفكك، وقوى تعمل من أجل تحقيق الوحدة. وإذا نظرنا لتلك الحالة، سوف ندرك أن التفكك يضعف الحركة الإسلامية، ويحول بينها وبين تحقيق أهدافها، وفى المقابل فإن توحد الأمة وإدراكها لوحدتها يصد مشروع التفكيك. فأصبحت معركة الوحدة والتفكيك هى المعركة الرئيسة فى المواجهة بين المشروع العلمانى الغربى، والمشروع الإسلامى، بل إن حالة الأمة من حيث تفككها أو وحدتها تمثل علامة أساسية ترصد لنا نتيجة المواجهة بين المشروعين.

فعندما تخرج جماهير الأمة فى مختلف البلاد من أجل قضية واحدة، عندئذ نرى تفوق المشروع الإسلامى على المشروع العلمانى الغربى، وعندما تصمت جماهير الأمة تجاه اعتداء يتعرض له وطن من أوطان الأمة، نستطيع رصد تمدد المشروع العلمانى القطرى المفكك للأمة. والجماهير هى التى سوف تحسم معركة المشاريع، وهى التى سوف تنحاز لمشروع دون الآخر، فمصير المشروع الإسلامى رهن بتأييد الجماهير له، ومصير مشروع التفكيك العلمانى الغربى رهن بتقبل الجماهير له، أو استسلامها له.

## ضرب الإسلامية بالقومية

لذا أصبحت الحرب على الحركة الإسلامية تأخذ بعدًا قوميا قطريًا، فى محاولة لحصر الحركة الإسلامية داخل الإطار القومى القطرى. وهى محاولة تتعدد أوجهها، فمن ناحية نجد محاولة لحصر النشاط السياسى للحركة الإسلامية فى المجال القومى القطرى، ومن ناحية أخرى نجد محاولات لتفكيك العلاقة بين الحركات الإسلامية عبر البلدان العربية والإسلامية. وتلك المحاولات تهدف لجعل مشروع الحركة الإسلامية محصورًا فى الإطار القومى القطرى، بحيث تتحول تلك الحركات إلى تيارات سياسية قومية قطرية، ليس لها علاقة بغيرها من الحركات الإسلامية، وليس لها علاقة بمشروع توحيد الأمة.

وتحولت تلك المعركة إلى داخل الحركة الإسلامية نفسها؛ حيث تتعدد التوجهات داخل الساحة الإسلامية، فيما يخص الموقف من الدولة القائمة، ومن ثم الموقف من مشروع توحيد الأمة سياسيًا. ثم تتطور تلك الاختلافات لتؤثر على التوجهات العامة للحركة الإسلامية، وتتحول تلك القضية إلى مدخل لتفكيك الحركة الإسلامية نفسها، وتصنع بداخلها تفاوتًا فى الخطاب السياسى؛ مما يسمح بتعميق الخلاف بين الحركات الإسلامية، فى موقفها من الدولة القائمة، أى الدولة القومية القطرية.

وهنا تدخل قضية طبيعة الدولة ضمن القضايا الأساسية المشكلة لتيارات الحركة الإسلامية. ويلتزم التيار المتشدد بالنموذج التاريخى للخلافة الإسلامية، ولا يقبل أى تطوير لشكل دولة الخلافة الإسلامية، ويحاول تيار الوسط التأكيد على هدف إقامة الخلافة الإسلامية، ويقبل تطوير شكل دولة الخلافة، لتصبح اتحادًا إسلاميًا، أو فيدرالية إسلامية. وفى المقابل تظهر رؤى تمثل التيار المتحرر، الذى يحاول إعادة صياغة المشروع الإسلامى داخل إطار الدولة القومية القطرية، وداخل إطار العلمانية الجزئية، لتصبح الفكرة الإسلامية رافدًا للفكرة القومية العلمانية. ويبدأ التفاخر بالتحديث والتطوير، فيصبح كل من يقبل الدولة القومية ممثلاً للتحديث الإسلامى، وممثلاً لحالة من التطور داخل الحركة الإسلامية.

## تفكيك التيار الإسلامى

فقد أدت حالة التفكك التى تعانى منها الأمة، والضغوط الغربية على المنطقة إلى تصدير المشكلة إلى داخل المجال الإسلامى؛ حيث باتت أصوات من داخل الحالة الإسلامية تواجه

بعضها البعض، وتتهم بعضها البعض. ولم يعد هدف وحدة الأمة ثابتًا لا يمكن أن يخرج عنه أى اتجاه إسلامى، بل بات محل نقاش وجدل. فقد أدى الواقع المتردى، وضعف حال الأمة، للبحث عن سبيل لتحسين أحوال أوطان الأمة، حتى وإن تم ذلك من داخل إطار الفكرة القومية القطرية، التى تقوم على العلمانية، ولو الجزئية.

ويتم حصار الحركة الإسلامية، بشروط العمل السياسى؛ حيث تمنع كل حركة إسلامية تحمل غاية توحيد الأمة من العمل السياسى. كما يتم وضع شروط على أى نشاط سياسى إسلامى، حتى لا يمارس تأثيرًا خارج الإطار القومى. ثم يتم الترويج للإسلامى القومى، الذى يعمل داخل الإطار القومى القطرى، ويقبل العلمانية الجزئية؛ لذا بدأ الخطاب السياسى الإسلامى يدخل فى حالة جدل داخلى، تستخدم فيها الرموز أحيانًا، وبدأت الحرب لاختطاف الوسطية؛ مما أدى إلى ترهل الفكرة وضياع ملامحها حتى باتت الوسطية أحيانًا وكأنها التكيف مع الوضع القائم.

وتبدو تلك الحالة معبرة عن منهج تصدير المعارك إلى داخل الحالة الإسلامية، حتى لا تبقى المعركة بين طرف إسلامى وطرف غير إسلامى، بل تصبح معركة بين طرفين كلاهما إسلامى، فتصبح المشكلة فى الفكرة الإسلامية، وعدم وضوحها أو عدم مناسبتها للعصر. ومع تبنى الحالة الإسلامية للمشكلات التى قامت بينها وبين النخب العلمانية والنخب الحاكمة، يتحول قدر من الصراع الخارجى إلى صراع داخلى؛ مما يضعف الحالة الإسلامية من داخلها، ويساعد على حصارها من خارجها.

فكلما كان الصراع محصورًا بين المشروع الإسلامى والمشروع العلمانى، ازدادت قدرة الحركة الإسلامية على مواجهته؛ لأنه مشروع غربى وافد. ولكن عندما تتسرب المشكلة داخل الفكرة الإسلامية نفسها، عندئذ تصبح المواجهة مع المشروع العلمانى أصعب، وتصبح قدرات الحركة الإسلامية أضعف. وتبدأ حالة التفكك داخل الحركة الإسلامية نفسها، بعد أن تمدد التفكك داخل الأمة. وتفكيك الحالة الإسلامية، يعد هدفًا مهمًا، حتى يتم تحويل طاقة الحركة الإسلامية إلى الصراعات الداخلية، كما تم تحويل طاقة الأمة إلى الصراعات القومية والمذهبية والدينية. وتصبح حالة الحركة الإسلامية مثل حالة الأمة، فلا تمثل طوق نجاة للأمة، بعد أن تغرق فى حالة التفكك مثلها.

تفاعلت العوامل الذاتية مع العوامل الخارجية إذن لتصنع حالة التفكك برعاية غربية. ويتم تحفيز نموذج الإسلامى القومى، حتى يصبح بديلاً عن الإسلامى الحضارى الذى ينشد وحدة الأمة السياسية. ويتم تصنيع التفكك داخل الحالة الإسلامية، لتتحول تيارات الصحوة الإسلامية إلى حالة من التفكك والصراع الداخلى، ويصبح التنوع الداخلى للحالة الإسلامية سببًا فى ضعفها، ثم تضيق الحالة الإسلامية بالتنوع، وتصبح متهمة بالتشدد والتطرف. ويصبح أمام الإسلامى إما قبول تلك الحالة من التنوع التى وصلت بالفكرة الإسلامية إلى العلمنة، أو أن يصبح متهمًا بالتطرف والجمود. فيتم تعميق حالة الاختلاف مرة أخرى، وتتحول إلى مباراة فى الاتهامات. ويتراجع دور الحركة الإسلامية فى مواجهة عدوها الخارجى المشترك، وتصنع لها أعداء جددًا من داخل الحالة الإسلامية نفسها، وتستنزف القوى الإسلامية فى تلك المعارك.

وفى المقابل يتم تقديم الجزرة لكل من يدخل فى نطاق الإسلامية القومية، وتقديم العصا لمن يقف فى خندق الوحدة السياسية للأمة، حتى تتزايد الفجوة بين طرفين، طرف متطرف ومتشدد، وطرف متطور وحديث، ويتم ضرب تيار الوسط، فإما أن تكون حديثًا وقوميًا وعلمانيًا جزئيًا، أو تصبح متطرفًا ومتشددًا وإرهابيًا.

ويتأكد من تلك الصورة أن الإسلامى القومى يمثل بديلاً للحركة الإسلامية، يتم إفرازه من داخلها. كما يتضح أن تيار الوسط يمثل العدو الأول للنخب الحاكمة والمتغربة، وأيضًا للدول الغربية التى لا تريد إلا إسلاميًا تتهمه بالإرهاب، أو إسلاميًا تعتبره حديثًا ومتطورًا، ولا تريد ذلك الإسلامى الإصلاحى السلمى المتجدد الذى يعمل من أجل إقامة الوحدة السياسية للأمة الإسلامية؛ لذا تحاصره من كل جانب، وتحاول تفكيك الحالة الإسلامية من حوله، حتى يضعف بسبب ضغوط الأطراف الإسلامية من حوله، وتعدد المواجهات التى يدخلها. ومن خلال سياسة العصا والجزرة، يتم الدفع فى اتجاه التشدد أو اتجاه التوفيق والتكيف، حتى تتحول الحالة الإسلامية إلى فريقين، فريق يرفض كل ما فى العصر، وفريق يقبل كل ما يفرضه الواقع. أما من يريد أن يتعامل مع الواقع من خلال ميزانه الخاص، ويقبل ما يناسبه ويرفض ما لا يناسبه، ويتطور من داخل فكرته، فيتم حصاره من داخل الحالة الإسلامية نفسها.

هى خطة القضاء على تيار الوسط الإصلاحى المتدرج؛ لأنه يعمل من خلال الدولة القومية القطرية، حتى يحولها إلى دولة إسلامية حضارية عابرة للقومية. فكل الضغوط تدفع نحو تبنى الخروج الكامل عن الدولة القائمة، أو القبول الكامل بها. والخارجون عن الدولة القومية يكون نصيبهم تهمة التطرف والإرهاب، والمتكيفون مع الدولة القومية يكون نصيبهم الاعتراف بهم كقوة تمثل التطور، سواء من قبل الغرب أو وكلائه فى المنطقة. فيبقى تيار الوسط تحت ضغوط من الجانبين، فيتهم بالاستسلام للدولة القومية القائمة من قبل التيار المتشدد، ويتهم بالتطرف ورفض الدولة القومية من قبل التيار المتحرر.

**الاستئصال المتتالى**

ليس الهدف من تفكيك الحركة الإسلامية أن تبقى مفككة، بل الهدف من ذلك هو التخلص من الحركة الإسلامية. فالتيار المتحرر يتم استقطابه داخل العلمانية الجزئية، والتيار المتشدد يتهم بالإرهاب والتطرف، وتشن عليه حرب شاملة. ويتم الضغط على تيار الوسط، حتى يميل للتشدد أو يميل للتحرر، وحتى تضيق المساحة التى يقف فيها، فيصاب بالتفكك من داخله. والنتيجة النهائية لتفكيك التيار الإسلامى هى التخلص من كل من يرفض الدولة القومية القطرية، حتى يتم تكريس تفكك الأمة، ومنع وحدتها.

## (٦)
## لإخضاع المجتمع..إيقاد نار حرب أهلية ثقافية

تتعرض المجتمعات العربية والإسلامية لعدة عوامل ضاغطة عليها، تؤدى إلى تفكك المجتمعات وتحولها إلى فئات متنازعة. فمعظم تلك المجتمعات تقع تحت ضغوط النخب الحاكمة من جانب، وضغوط الهيمنة الغربية من جانب آخر؛ مما يؤدى إلى تفكك الوحدة الثقافية لها. فتحدث تشققات فى البنية الثقافية، تؤدى إلى تفكك مكونات المجتمعات، وتحولها إلى فئات متباعدة، وربما متصارعة. ثم تتحول حال المجتمع إلى مرحلة النزاع الثقافى الحاد؛ مما يجعله يفقد القدرة على التماسك، وتضيع الأسس الثقافية المشتركة المشكلة لوحدة المجتمع. فتتعرض الجماعة الوطنية لحالة من حالات التفكك العميق الذى يضرب هويتها المشتركة، ويضرب إحساسها بذاتها الثقافية الواحدة.

تلك المرحلة تمثل مرحلة التفكيك العميق؛ حيث يبدأ التفكيك بالإطار الحضارى الجامع للأمة الإسلامية، ثم يتحول التفكيك إلى الإطار الثقافى الجامع لكل مجتمع من مجتمعات الأمة. تلك هى الحالة الراهنة التى تشهدها الأمة الإسلامية، فقد بدأت مرحلة التفكيك الحضارى فى النصف الأول من القرن العشرين، ثم تعمقت فى النصف الثانى من القرن نفسه، ولكن مع بداية القرن الحادى والعشرين، بدأت مرحلة تفكيك الأطر الثقافية الجامعة لكل مجتمع من مجتمعات الأمة. فبعد تفكيك أوطان الأمة، بدأت مرحلة تفكيك الوطن الواحد.

وتتداخل العوامل المؤدية لتفكيك الأوطان، فالنخب الحاكمة تهدف إلى تأمين بقائها فى السلطة، أيًا كانت نتائج ذلك على المجتمع، والقوى الغربية تهدف إلى تأمين هيمنتها على العالم، أياً كانت النتائج أيضًا. ولكن المجتمع من داخله يستجيب لتلك العوامل استجابات مختلفة، فجزء منه يستسلم للضغوط التى يتعرض لها المجتمع، وجزء منه يرفضها، وجزء منه يعزل نفسه عن الأوضاع الراهنة كلية. ومع تنوع استجابات المجتمع، واختلاف مواقف فئاته وشرائحه، تتعمق حالة الانقسام داخل المجتمع، وتبتعد المسافات بين الفئات والشرائح المكونة له.

والمحصلة النهائية لتلك الحالة هى مجتمعات مفككة، تفقد وحدتها الثقافية، ثم تدخل فى مرحلة الاحتقان الداخلى، وتتصدع العلاقات الداخلية، وتبدأ بعدها مرحلة النزاع الداخلى؛ حيث يتحول المجتمع إلى مرحلة الحرب الأهلية الثقافية، التى قد تؤدى أحيانًا إلى حرب أهلية عنيفة، أو إلى أحداث عنف متفرقة. وتلك الحالة تساعد النخب الحاكمة على البقاء فى السلطة؛ لأنها تحكم مجتمعًا مفككًا، كما تساعد القوى الغربية على فرض هيمنتها على النخب الحاكمة؛ لأنها نخب معزولة عن المجتمع، وليس لها سند شعبى. وفى نفس الوقت تساهم تلك الحالة فى توسيع هيمنة العولمة الغربية على المجتمعات، لتصبح الإطار الثقافى الطاغى على العالم.

### الاستبداد وتفكيك المجتمع

هيمنة النخب الحاكمة على الحكم، وتأمين بقائها فيه، يؤدى إلى إضعاف المجتمع. فالمجتمع القوى يمكنه أن يفرض رؤيته السياسية، ويفرض مرجعيته الحضارية، ويمارس

ضغطًا شعبيًا حتى يتمكن من اختيار حكامه وممثليه. ولكن المجتمع الضعيف لا يمكنه الوقوف أمام السلطة المستبدة التى تحتمى بالدولة، وتحتمى بسلاح الدولة؛ لذا عملت النخب الحاكمة فى البلاد العربية والإسلامية على إضعاف المجتمعات، بدرجات مختلفة. وفى النظم الجمهورية نجد أكبر درجة من التعدى على المجتمع وإضعافه.

والمجتمع الضعيف يتعرض للتفكك، ولكن النخب الحاكمة لم تهتم بتلك المشكلة، بل وظفتها، فظلت النخب الحاكمة تميل لطرف فى مواجهة آخر، وتضرب طرفًا بآخر، وتقدم نفسها بوصفها القوى الوحيدة القادرة على حكم المجتمع المفكك، وكأنها تمثل القوة التى تمنع الحرب الأهلية، رغم أنها تقوم بتعميق حالة الانقسام داخل المجتمع. والنخب الحاكمة تمارس سياسات من شأنها تعميق الخلاف بين تيارات المجتمع، وتعميق حالة التناقض الداخلى؛ لذا نجد دعمًا من النخب الحاكمة للاتجاهات المتحررة والمتغربة؛ مما يؤدى إلى توسيع هامش العولمة الغربية، وتعميق حالة التغريب. ويفهم من هذا أن النخب الحاكمة تستفيد من العولمة الغربية؛ وهيمنة الحضارة الغربية، حيث إنها توفر غطاء لتحالف النخب الحاكمة مع الغرب. فخضوع المجتمع تدريجيًا للهيمنة الحضارية الغربية يبرر خضوع النخب الحاكمة للقوى الغربية.

ولكن النخب الحاكمة تواجه تيار الصحوة الإسلامية، الذى يحاول الرد على الهيمنة الغربية، واستعادة الهوية الحضارية الجامعة. وإذا تتبعنا سياسة النخب الحاكمة تجاه تيار الصحوة الإسلامية، سنجد أنها تعمد إلى شق صف هذا التيار، وتعميق الخلاف داخل تياراته الفرعية. والنخب الحاكمة تحاول استمالة القوى الإسلامية غير السياسية فى مواجهة القوى السياسية، وتحاول ضرب الاعتدال بالتشدد، وتتحالف مع أى فريق من التيار الإسلامى مؤقتًا، إذا وجدت أنه يحد من انتشار فريق آخر.

وفى غمرة تلك السياسة الهادفة لشق تيار الصحوة الإسلامية، نجد الحكومات تميل للتيار المتشدد الإسلامى إذا كان لا يعمل بالسياسة، وتحاول من خلاله ضرب التيار الوسطى الذى يعمل بالسياسة. وهنا نجد مساحة الحركة للتيارات الإسلامية تضيق وتتسع حسب مصلحة النخب الحاكمة. وفى لحظات نجد النخب الحاكمة توسع مساحة الحركة للتيار المتشدد الإسلامى، وفى نفس الوقت توسع مساحة الحركة للتيار المتحرر العلمانى،

وتضيق مساحة الحركة على التيارات الأخرى. وتلك حالة تمثل خطرًا على المجتمع، وتؤدى إلى تشقق الوحدة الثقافية.

**الأقطاب المتضادة**

فغالب السياسة الرسمية فى الدول العربية والإسلامية تؤدى إلى تعزيز الفئات المتشددة المنعزلة عن المجتمع، أو المنسحبة منه. وهى تلك الفئات التى تلجأ للحصن الدينى لحماية نفسها من التقلبات الثقافية الحادثة فى المجتمع، والتى تلجأ أيضًا للحصن الدينى فى مواجهة تمدد التغريب والعولمة الغربية. ولكن السياسات الرسمية تسمح بتمدد التغريب، ثم تسمح بتمدد الاتجاهات المتشددة المنعزلة، التى تواجه التغريب بالانعزال؛ مما يؤدى إلى توسيع مساحة الفئة الخارجة عن ثقافة المجتمع، والفئة المنعزلة داخل ثقافة المجتمع. وهو ما يصنع حالة استقطاب شديد فى المجتمع؛ حيث تظهر الأقطاب المتعارضة، وتمارس الفعل والظهور بصورة تجعل المجتمع يبدو متناقضًا ومتعارضًا. وتصبح المشكلة فى حالة الانقسام الثقافى داخل المجتمع؛ مما يوفر غطاء للمشكلة الرئيسة المتمثلة فى هيمنة الاستبداد الداخلى والهيمنة الخارجية.

ويتحول الصراع مع النخبة الحاكمة، وأيضا مع القوى الغربية المهيمنة إلى صراع داخلى؛ مما يؤدى إلى تصريف طاقة الغضب، وتصريف التناقضات الاجتماعية إلى الداخل. وينشغل المجتمع بمعركة التشدد والتحرر، أى ينشغل بمعركة بين الاتجاهات الأقصى تطرفًا، التى تعبر عن حالة خاصة، ولكنها تصبح فى صدارة المشهد. وهكذا تنشغل المجتمعات بمعاركها الداخلية؛ مما يؤدى إلى تعميق حالة الانقسام الثقافى، ومن ثم إضعاف المجتمع وتفكيكه.

ويقع المجتمع بين التيار المتشدد الذى يحمى ثقافته وحضارته واعتقاده بالانعزال عن العصر، وبين التيار المتحرر الذى يستسلم للأوضاع الراهنة، ويستسلم للهيمنة الغربية. وبين من يرفض الهيمنة الغربية وكل ما تأتى به، وينعزل لحماية نفسه، ومن يستسلم لتلك الهيمنة، تضيع فرصة التعامل مع الواقع لتغييره؛ مما يعضد من بقاء الأوضاع الراهنة، واستمرار الهيمنة الغربية على المجتمعات، وأيضًا على النخب الحاكمة، لتصبح النخب الحاكمة هى الحامية لحالة الهيمنة الغربية، مقابل تأمين بقائها فى السلطة. ولكن المجتمعات تظل تعانى من حالة التشقق الداخلى الذى يتعمق مع مرور الوقت.

## ضرب الاعتدال والإصلاح

أهم مشكلة تواجه النخب الحاكمة وكذلك القوى الغربية المهيمنة تتمثل فى الاتجاهات المعتدلة الإصلاحية التى تحمل مشروعًا للتغيير السلمى المتدرج، والتى تقيم مشروعها على استعادة المرجعية الحضارية الإسلامية؛ لأن تلك الاتجاهات ترفض الواقع، وتريد إصلاحه، ولكنها تحاول البعد عن التطرف والعنف، كما تبتعد عن الاستسلام لذلك الواقع. فبين الاستسلام لواقع الهيمنة الغربية، وبين الرفض الكامل للعصر، تقع مساحة مهمة لمحاولة إصلاح الأوضاع القائمة من داخلها. وفى تلك المساحة تظهر الحاجة لاستعادة الهوية الحضارية دون تشدد، ورفض الهيمنة الحضارية الغربية، دون رفض منتجات العصر وعلومه ومعارفه، ورفض الأوضاع السياسية القائمة، دون الخروج عليها، أو الانعزال عنها. وتلك المساحة، وهى مساحة الفعل الإصلاحى الحضارى، تمثل تهديدًا لبقاء النخب الحاكمة، تهديدًا للهيمنة الغربية؛ لذا نجد أن السياسات الحكومية تحاصر تلك المساحة، كما أن السياسات الغربية تحاصر تلك المساحة أيضًا، حتى تنحصر مساحة الاختيار فى القبول بالهيمنة الغربية، أو الانعزال عن الحياة.

وليست القضية تخص محاولة ضرب تيار إسلامى بعينه، وإن كان هذا هدفًا لها، ولكن القضية تخص ضرب المساحة التى يمكن أن تتشكل فيها محاولة استعادة الوحدة الثقافية للمجتمعات؛ لأن ذلك سوف يؤدى إلى استعادة الوحدة الحضارية للأمة. نقصد من هذا، أن التيار المتشدد الذى يركز على التحصين الدينى يعزل نفسه عن المجتمع ويرفض كل أحواله والتيار المتحرر يعمل على إلحاق المجتمع بالهيمنة الغربية؛ لذا يظل المجتمع مفككًا، ويعانى من التشقق الثقافى. وعليه يصبح ضرب التيار الوسطى الإسلامى جزءًا من منع أى محاولات لتجميع المجتمع مرة أخرى، واستعادة الوحدة الثقافية له. فاستعادة المجتمع لوحدته الثقافية والحضارية يمثل خطرًا على القوى الحاكمة والقوى الغربية، وتلك هى المشكلة. فبقاء النخب الحاكمة رهن باستمرار حالة تفكك المجتمعات، وبقاء الهيمنة الغربية رهن أيضًا ببقاء تفكك المجتمعات.

## تفكيك دون تمزيق

لكن بقاء النخب الحاكمة يمكن أن يتهدد إذا دخل المجتمع فى صراع عنيف، أو حرب أهلية، كما أن تأمين المصالح الغربية أيضًا يحتاج لقدر من الاستقرار داخل المجتمعات،

يمنع حدوث اضطرابات واسعة. وتلك هى حالة التناقض، فالسياسة الرسمية والسياسة الغربية تدفع المجتمعات العربية والإسلامية إلى حالة الحرب الأهلية، سواء الثقافية أو العنيفة، وفى نفس الوقت، فإن الدول الغربية والنخب الحاكمة المتحالفة معها تحتاج لتأمين أوضاع المجتمعات الداخلية، لمنع حدوث اضطرابات واسعة.

ولكن السياسة المستبدة لا يمكن أن تكون مظلة لتوحيد المجتمع، كما أن التغريب لا يمكن أن يكون هوية جامعة للمجتمع؛ لذا لم تعد القوى المهيمنة داخليًا وخارجيًا تملك أى وسيلة لمنع الحروب الأهلية أو النزاعات الداخلية. كما أن القوى المهيمنة لا تملك أدوات لوقف النزاعات التى تصنعها والحروب الأهلية التى تفجرها. مما اتضح معه أن تحالف الهيمنة الغربية مع الاستبداد الداخلى يستطيع تفكيك المجتمعات، ولكنه لا يقدر على إعادة توحيدها، ويستطيع تفجير الحروب الأهلية، ولكنه لا يستطيع إيقافها.

لهذا يلاحظ اتباع سياسة التفكيك المحسوب، فكل السياسات الداخلية والخارجية تحافظ على المجتمعات مفككة، وتحاول منع تفجرها، وتحاول الحفاظ على قدر من النزاع الداخلى، ومنع أو وقف الحروب الأهلية. وكأننا بصدد عملية تفكيك للمجتمعات، تراعى عدم تفجرها بشكل نهائى. وربما تكون تلك هى الفوضى الخلاقة التى أرادتها الإدارة الأمريكية، فقدر من التفكك والفوضى يسمح بالسيطرة على الأوضاع. ولكن إذا تعمقت حالة الفوضى فلن يستطيع أحد السيطرة عليها. ولكن الدول الغربية وأيضًا النخب الحاكمة فشلت فى تحويل حالة التفكك إلى وضع جديد يؤمن مصالحها، فلم ينجح أحد فى تركيب المجتمع بالصورة التى يريدها، ولم ينجح أحد فى إعادة تصنيع المجتمع حسب مصلحته.

لذا أصبح توحد المجتمع خطرًا على النخب الحاكمة والقوى الغربية، كما أن انفجار الفوضى الشاملة خطر عليهما، فأصبحت السياسات تتجه نحو الحفاظ على المجتمع مفككًا، دون أن يتحلل، ودون أن يتوحد. وكأنه فى حالة ما بين الحياة والموت. وهنا ظهرت إستراتيجية الحفاظ على غيبوبة المجتمع، من خلال السماح بالجرعات اللازمة للحفاظ على الحد الأدنى من القدرة على البقاء من خلال الدين، والسماح بالجرعات اللازمة لمنع توحد المجتمع من خلال التحرر والتغريب، حتى يبقى المجتمع فى حالة بين الانهيار الشامل والنهوض، فلا ينهار، ولا ينهض.

## (٧)

## لمنع التيار السائد.. حصار مزدوج للإخوان

تعمل الحركات الإسلامية لتشكيل تيار واسع فى المجتمع، وتيار جامع لكل تيارات الصحوة الإسلامية، فهى تعمل لبناء تيار سائد فى الأمة، يقود الإصلاح والتغيير. وتعمل الحركات الإسلامية من أجل إعادة بناء المجتمع داخل إطار حركى نشط، يجعل المجتمع فاعلاً فى بناء ذاته، وتغيير أوضاعه، وبناء نظامه السياسى. وتتحرك التيارات الإسلامية نحو تشكيل قوة مجتمعية داخل المجتمعات العربية والإسلامية، لتحقيق وحدة الأمة على المستوى الاجتماعى، حتى تتحقق وحدة الأمة على المستوى السياسى. وفى تلك الحركة تحدث العديد من المعارك بين التيارات الإسلامية، وداخل التيار الواحد، وبين تلك التيارات والمجتمعات التى تعمل فيها. وتنتج تلك المعارك من الظروف التى تمر بها الأمة الإسلامية، فمسار التيارات الإسلامية يتجه نحو الوحدة، وكل الظروف المعادية له تعمل على تفكيك الأمة. وبين عملية التفكيك وعملية التوحيد تحدث المعركة الرئيسة، التى تنتقل من معركة بين الحركة الإسلامية والقوى المعادية لها، لتصبح معركة بين التيارات الإسلامية نفسها، ثم تصبح معركة داخل التيار الواحد أو الحركة الواحدة.

وتواجه النخب الحاكمة والقوى الغربية والنخب العلمانية الحركة الإسلامية، فى محاولة لتفكيك التيار الإسلامى، ومنع تحوله إلى تيار سائد داخل الأمة الإسلامية، حتى لا يصبح قائدًا للأمة، وحتى لا يصل إلى مرحلة الفوز بتأييد الأغلبية الكاسحة. إذن نحن بصدد مسارين متعارضين، مسار التفكيك ومسار التوحيد، وبينهما معركة تحدد جانبًا مهمًا من مستقبل الأمة ومصيرها.

هنا يمكن النظر لجماعة الإخوان المسلمين بوصفها محاولة مهمة من محاولات توحيد الأمة لتشكيل تيار سائد فيها يضطلع بمهمة بناء وحدة الأمة ونهضتها، لنرى كيف تصدر حالة التفكك إلى محيط الجماعة، وداخل تيار الصحوة الإسلامية الذى تنتمى له، وكيف تصدر حالة الاختلاف إلى داخل جماعة الإخوان نفسها؛ مما يعرقل قدرتها على توحيد التيارات الإسلامية، أو تشكيل التيار السائد الذى يبنى وحدة الأمة.

تقدم جماعة الإخوان نفسها بوصفها معبرة عن الوسطية والاعتدال الإسلامى، أى معبرة عن الموقف المتوازن والمتكامل للرؤية الإسلامية. وتتشكل الوسطية فى أى مجتمع وفى أى مشروع من خلال تبلور رؤية أساسية متفق عليها، وتمثل حالة إجماع. فالناظر إلى تاريخ الفكرة الإسلامية، يمكنه أن يحدد الرؤية الغالبة فيه والمتفق عليها. فإذا كانت الوسطية والاعتدال هى جوهر الفكرة الإسلامية، فإن الاتفاق هو الذى يحدد تلك النقطة. فعندما يحدث توافق على رؤية معينة داخل مشروع حضارى، تصبح تلك الرؤية هى الممثلة للأغلبية، وممثلة للفكرة السائدة، وبالتالى ممثلة لوسط تلك الرؤية الحضارية.

هنا يكمن التحدى الأول للرؤية الوسطية الإسلامية، فهى لا تتحقق فى التاريخ الاجتماعى من خلال تيار أو حركة تؤمن بها، ولكن تتحقق من خلال حدوث توافق مجتمعى عليها. فعندما تصبح رؤية ما ممثلة لتيار الأغلبية داخل الأمة الإسلامية، تصبح هذه الرؤية هى المعبرة عن الوسطية والاعتدال. فكل تيار إسلامى يقدم رؤيته للمجتمع، وعندما يتوافق المجتمع على رؤية معينة، وتصبح ممثلة للأغلبية، تصبح تلك الرؤية المتفق عليها تمثل جوهر الرؤية الإسلامية بحكم ما حدث من إجماع حولها، وبهذا تصبح ممثلة للوسطية والاعتدال الإسلامى فى لحظة تاريخية معينة.

وجماعة الإخوان المسلمين تقدم رؤيتها بوصفها معبرة عن الوسطية والاعتدال. وتحدد أوضاع المجتمع موضع جماعة الإخوان المسلمين. فكلما مال المجتمع للتشدد، بدت الجماعة متحررة، وكلما مال المجتمع للتحرر بدت الجماعة متشددة. وتعوق حالة الاضطراب التى يمر بها المجتمع عملية تشكل تيار الوسطية داخله، كما تؤدى إلى تغيير موضع جماعة الإخوان المسلمين فى المجتمع.

ثم تتحول المعركة إلى داخل تيار الصحوة الإسلامية، فكلما زادت التيارات الأكثر تشدداً، بدت جماعة الإخوان أكثر مرونة، وكلما زادت الاتجاهات المتحرر والمرنة، بدت الجماعة أكثر تشدداً. وهكذا يتم إفشال عملية تشكل تيار الوسطية، ويتم عرقلة التقارب بين الحركات الإسلامية، بسبب ضغوط الظروف المعادية للحركة الإسلامية، والضغوط التى يتعرض لها المجتمع.

ويتمثل التحدى الأساسى أمام جماعة الإخوان المسلمين فى قدرتها على القيام بعملية مضادة لتحقيق التوازن الداخلى للفكرة الإسلامية بين تيارات الصحوة الإسلامية وداخل المجتمع.

**للوسطية وجوه كثيرة**

تمثل الوسطية كرؤية وموقف حالة الاعتدال والتوازن داخل الفكرة الإسلامية، من وجهة نظر حضارية. فالرؤية الإسلامية تقوم على النقل والعقل، والتوازن والتكامل بين دور النقل والعقل يحقق نقطة الوسطية والتعادل والاعتدال؛ لذا تبنى الرؤية الإسلامية على التكامل فى النظر. فهى رؤية تقليدية فيما يخص الثوابت، وهى رؤية تجديدية فيما يخص المتغيرات، وهى رؤية توفيقية فيما يخص متغيرات العصر. فهى التزام بالثوابت وتجديد فى المتغيرات، وهى حالة تحديد دقيق للثوابت والمتغيرات.

ويستطيع تيار الصحوة الإسلامية تحقيق التطور اللازم، حتى يصل لمعيار الوسطية والاعتدال، ويحقق التوافق حوله، ولكن الضغوط التى يتعرض لها هذا التيار تعرقل تلك اللحظة، وتجعل تياراته تختلف حول نقطة التوسط والاعتدال. فتيار الصحوة يتعرض لضغوط من عملية التغريب المستمرة، كما يتعرض للحصار الداخلى من النخب الحاكمة، ويتعرض لحرب من النخب العلمانية، وحصار من القوى الغربية.

وبسبب الضغوط التى يتعرض لها غالب تيار الصحوة الإسلامية، نجد تيارات تميل للتقليدية حماية للثوابت، وتجعل من موقفها التقليدى ممثلاً لجوهر الفكرة الإسلامية، فتظهر تيارات تقليدية خالصة. كما تظهر اتجاهات أخرى تحاول مواجهة الحصار المضروب حول الحركة الإسلامية باتجاهات توفيقية لوقف الحرب التى يتعرض لها التيار الإسلامى، فتظهر توجهات توفيقية خالصة. ونصبح بصدد وسطية تقليدية خالصة ووسيطة توفيقية خالصة، ويصبح الموضع بين تلك التيارات والاتجاهات يتعرض لضغوط شديدة. وهكذا حوصرت جماعة الإخوان المسلمين، بين من يبدو أكثر منها تقليدية، ومن يبدو أكثر منها توفيقية، فأصبحت تمثل حالة تحرر للأول، وحالة تشدد للثانى.

وهكذا تضطرب الرؤية الوسطية المعتدلة بين من يعطيها ملمحًا تقليديًا صرفًا، ومن يعطيها ملمحًا توفيقيًا صرفًا، فيظهر موقف جماعة الإخوان المسلمين ملتبسًا، فهو ليس تقليديًا بما يكفى، وليس توفيقيًا بما يكفى.

والوسطية التقليدية تقدم رؤية محددة الملامح، وتأخذ مواقف محددة وقاطعة تجاه الواقع المعاصر، وتجعل لنفسها صورة مميزة عن الواقع الراهن. أما الوسطية التوفيقية فتقدم رؤية متكيفة مع الواقع، وتصالح الظروف المحيطة، وتقدم نفسها جزءًا من الواقع المحيط بها.

هكذا تواجه جماعة الإخوان المسلمين تحديًا ثانيًا، فهى فى الواقع جماعة تقليدية بقدر وتوفيقية بقدر، وهى أصولية بقدر وتجديدية بقدر. والتقليدية عندما تكون مكونًا من مكونات رؤية تختلف عن التقليدية الخالصة، كما أن التوفيقية عندما تكون مكونًا من مكونات رؤية تختلف عن التوفيقية الخالصة.

ورؤية جماعة الإخوان المسلمين تفترض أن الوسطية والاعتدال هى نقطة التوازن والتكامل، وهى التى سوف تشكل الرؤية الغالبة داخل الأمة، وتمثل تيارها السائد. ولكن تلك الرؤية عندما تحاصر بين أقصى التشدد وأقصى التحرر تصبح محاصرة بصور متناقضة، فتبدو أحيانًا غامضة وأحيانًا ملتبسة، وأحيانًا أخرى مراوغة.

**التنوع داخل الإخوان**

تبنت جماعة الإخوان المسلمين الرؤية الحضارية الإسلامية، وشكلتها فى صورة إطار جامع لأسس تلك الرؤية كما تراها. فكان بناؤها من البداية كتيار عام، وليس حالة خاصة، وبهذا تصبح إطارًا يتعامل مع العديد من الرؤى. فقد قامت جماعة الإخوان المسلمين لتصبح إطارًا جامعًا للأمة، يتفاعل مع العديد من التوجهات والاتجاهات، ويشكل جامعًا لها. ولكن حالة التفكك التى تضرب المجتمع، ثم تضرب تيار الصحوة الإسلامية، أصبحت تعرقل التوصل إلى الرابط الجامع لمختلف الرؤى الإسلامية، وتحديد الأسس الثابتة لمجمل الرؤية الإسلامية؛ بما سمح بتحول حالة التفكك فى المجتمع لحالة تفكك داخل تيار الصحوة الإسلامية.

وجماعة الإخوان المسلمين من داخلها مثلت حالة من التنوع القائم على التوازن والتكامل، فهى إطار يتسع لعدة توجهات لذا تعددت الرؤى داخلها، وأصبحت مصدرًا للثراء والتنوع. ولكن ذلك التنوع الداخلى تأثر بالحالة المحيطة بالجماعة فى لحظات معينة، وعكس حالة التفكك التى يعانى منها تيار الصحوة الإسلامية فى لحظات أخرى. فحالة التنوع داخل جماعة الإخوان المسلمين مثلت عاملاً لقوتها أحيانًا، وعاملاً لإضعافها فى

أحيان أخرى، نتيجة الحصار المضروب حولها، الذى يغذى حالة الجدل بين جماعة الإخوان المسلمين ومجمل الحالة الإسلامية، وبينها وبين المجتمع.

والرؤية الوسطية للجماعة شملت التقليد والتجديد والتوفيق، فظهر التنوع فى قدر كل مكون منها، فتشكلت اتجاهات تغلب مكونًا ما نسبيًا، فظهر التقليدى والتجديدى والتوفيقى.

ففى لحظات تتعرض الجماعة إلى ضغوط خارجية تحاول دفعها نحو التكيف مع الواقع السياسى القائم؛ مما يؤدى إلى تعضيد الخارج للاتجاه التوفيقى داخل الجماعة، ليكون قناة للضغط على الجماعة. وهنا تتأزم الجماعة من محاولات التوفيق، وتراها سنداً للضغوط الخارجية عليها، وتعتبرها محاولة لتفكيك فكرتها.

وفى لحظات تتعرض الجماعة لضغوط شديدة من التيارات المتشددة والتقليدية خارجها، تجعل صورتها تبدو مرنة أو مهادنة فى نظر المجتمع، فيظهر الاتجاه التقليدى داخل الجماعة، ويحاول تأكيد أصولية رؤية الجماعة، ويصبح معبراً تمر من خلاله أفكار أكثر تقليدية إلى داخل جسم الجماعة. وهنا تضطرب الجماعة خوفًا من تحول وجهتها نحو التشدد، وتحاول الحفاظ على وسطية موقفها ورؤيتها.

وعليه سنجد لحظات قام فيها الاتجاه التوفيقى داخل الجماعة بدور مهم فى كبح الميل للتشدد، كما قام الاتجاه التقليدى بدور مهم فى لحظات أخرى لكبح الميل للتحرر والتكيف.

ولكن فى لحظات مفصلية تتجه الجماعة إلى حسم موقفها مع اتجاهات معينة. ففى لحظة حسمت الجماعة موقفها مع اتجاه متشدد هدد رؤيتها، وفى لحظة أخرى نجد الجماعة تحسم موقفها مع اتجاه مرن يهدد رؤيتها أيضًا. وتلك هى اللحظات الصعبة، وهى اللحظات التى تصدر فيها حالة الاضطراب التى يمر بها المجتمع إلى داخل الجماعة، فتقاوم الجماعة تلك الحالة، وتحاول تحصين نفسها منها، حتى تستعيد تماسكها، لتقوم بدورها فى تحقيق وحدة الأمة، ووحدة التيار الإسلامى.

تتضح ملامح المعركة، فهى حول توحيد الأمة، وبين محاولات التوحيد ومحاولات التفكيك. وعندما تحاول حركة توحيد الأمة تتعرض لمحاولة تفكيكها من الداخل، وعندما تفشل عملية تفكيكها، يتم تفكيك تيارات الصحوة الإسلامية حولها، وعندما تتقارب تيارات الصحوة الإسلامية، يتم تفكيك المجتمع حولها. وعندما يترابط المجتمع مع تيار الصحوة الإسلامية، يتم ضرب تيار الصحوة من داخله. وهكذا تدور معركة التفكيك، وتؤثر على الرؤى والمواقف، وتدخل الرؤية الإسلامية فى حالة جدل داخلى، أو حالة صراع داخلى، حتى تضعف الفكرة، أو يتم عرقلة حصولها على أغلبية الأمة. وكلما تباعدت الرؤى داخل تيار الصحوة الإسلامية، أو داخل التيار الواحد، دخلت فى معارك داخلية تعرقل معركتها مع القوى المعادية لها، وتعرقل قدرتها على التوحد، حتى توحد الأمة.

وتحاصَر جماعة الإخوان المسلمين حتى لا تصبح عموداً مركزيًا لوحدة التيار الإسلامى، ومن ثم وحدة الأمة، فتضرب بمحاولات التفكيك خارجها وداخلها. ويتعرض تيار الوسطية لعملية تفكيك متتالية، حتى لا يصبح نواة لتيار سائد داخل الأمة. فالخطر الرئيس الذى يواجه خصوم المشروع الإسلامى يتمثل فى وحدة التيار الإسلامى ووحدة الأمة الإسلامية.

***